المنعطف

أحمد عودة

المُنعَطَف

قصص قصيرة

المُنعَطَف

قصص قصيرة

أحمَد عودة

الأعمال الكاملة (4)

الطبعة الثانية:

دارُ الجيل العربي للنشر والتوزيـع.

2022م.

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية – بغداد.

619 لسنة 1980

سلسلة القصة المسرحية (114).

جميعُ الحقوق محفوظة للجمهور.

دار الجيل العربي للنشر والتوزيـع

Mobile 8789591 79 00962

e-mail: aljeelalarabi@yahoo.com

مراجعة وتحقيق: مظهر عاصف.

تصميم الغلاف: نيران عبد الرحمن.

تنويه عابر:

يُسمحُ للقارئ بإعادة إصدارِ هذا الكتاب وأيِّ جزءٍ منه أوتخزينه واستنساخه ونقله، كليّا أو جزئيا، وفي أيِّ شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونيّة أو آلية، أو الاستنساخ الفوتوغرافي، والتسجيل واستخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، ولا يلزم الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر بناء على رغبة المُحقّق.

تعريف بالكاتب:

هو الأديبُ الأردني الراحل «أحمد عودة» من مواليد قرية إذنبَّة -الرملة- فلسطين المحتلّة- عام 1945. ويُعد أحد أعمدة رابطة الكتاب الأردنيين، وأحد مؤسسيها الأوائل، وعضو في اتحاد الكتّاب العرب منذ عام 1982. احترفَ كتابةَ القصة والرواية ونصوصِ المسرح قبل احترافه كتابة المسلسلات المتلفزة، ويعتبرُ من روّاد المشهد الثقافي الأردني فقد كانَ يرفدُ الصحف والمجلات الأردنية والعربية بمقالات نقدية أدبية، وببعض البحوث الفكرية واللغوية.

تمَحوَرت أعمالُه الورقية حول القضية الفلسطينية بشكل كبير، وإن تطرَّق من خلالها لكينونة الإنسان وعلاقته مع الأرض والآخر في كل مكان، ناهيك عن قضايا الأمة العربية بمجتمعاتها وهمومها المشتركة، وامتازت لغتُه العربية بالجزالة السلسلة كانعكاسٍ تام لمهنتهِ التي مارسها كمدرسٍ لَها في مدارس القدس وعمّان حتى تقاعده، وتفرّغه الكامل للإنتاج الأدبي.

الأديبُ من أوائل الروائيين العرب الذين اتجهوا لكتابة المسلسلات التلفزيونية مواكبةً منهم لعصر الصورة والصوت، ومن الرّواد الذين نقلوا اللهجة الأردنية العامية والريفية والبدوية عبر مسلسلاتهم إلى الشاشات العربية.

هذا وقد مارس الكتابةَ الإبداعية طوال حياتِه قبل أن توافيهِ المنية في «حي الربوة- ماركا الجنوبية- عمان- الأردن». في مساء 9 نيسان من عام 2016م.

مؤلّفاته الورقيّة "الطبعة الأولى":

حين لا ينفع البكاء- قصص- عمان- مكتبة الشرق- 1973.

زعتر التل- قصص- عمان- رابطة الكتاب الأردنيين- 1979.

المنعطف- قصص بغداد- وزارة الثقافة- 1980.

الولادة والموت- قصص- دمشق- اتحاد الكتاب -1982.

جمجوم- قصص- بغداد- وزارة الثقافة والإعلام- 1982.

ساعات الصفر- رواية- بيروت- دار الوحدة- 1983.

الفواصل- قصص- دمشق- اتحاد الكتاب العرب- 1984.

الكلب المخدوع- قصص للفتيان- عمان- دارابن رشد- 1986.

عيون المدافع- قصص- دمشق- اتحاد الكتاب العرب- 1995.

الفخ- قصص- عمّان- وزارة الثقافة- 1996.

الباشكار- رواية- عمّان- دار الينابيع- 1996.

مسرحيات:

الكنـــــز.

أصـل المسألـة.

شلــة الأنـس.

أفلام تلفزيونية:

المريض.

عذابـات حلُّـوم.

طلقـة الرحمـة.

الانتظـار.

أهم المسلسلات المُتلفزة:

ويبقـى الأمـل- باللهجة الأردنية.

الفـرح المنسـي- باللهجة الأردنية.

الحائـــــر- باللهجة الأردنية.

حــارة الزيـن- باللهجة الأردنية.

الريحانيـــة- باللهجة الأردنية.

خط النهاية- باللهجة الأردنية.

خــط البدايـة - باللهجة السعودية.

الزمـــن دوار- باللهجة السعودية.

مرايــا الحـب- باللهجة المصرية.

هــذا قـراري- باللهجة السورية.

الأمانــي المـرّة- باللهجة السورية.

فهرس الكِتاب:

مقدمة	*1*
الرجلُ المُتعبُ وهؤلاء	**5**
المهزَلة	**18**
الحزنُ الأبيض	**30**
بيتُ البطيخ	**39**
المُنعطَف	**50**
شرُّ البليّة	**66**
الرأيُ السَدِيد	**79**
الفرَحُ المنسي	**88**

عربةُ الحياة	97
السُؤال	106
بعضُ الطيورِ مهاجرة	114
مثلُ كلِّ الفقراء	121
الخنَازير	132
هوَ والذُباب	140
بعضُ ما قالَه بعضُهم	149
هذهِ النهاياتُ الصعبة	158

مُقدّمَة:

تمّت طباعة النسخة الأولى من هذه المجموعة في دار الرشيد للنشر- بغداد؛ ضمن منشورات وزارة الثقافة والإعلام في الجمهورية العراقية العربية عام 1980م؛ لذا حين عقدتُ العزمَ على طباعتها من جديد اصطدمتُ بنسخة قديمة قد لعقَ لسانُ القِدَمِ بعضَ حبرِها المبيّض؛ رغم زعمِه أنه كان أسودَ اللون يومًا؛ أو مقضومةِ الحروف وبعضِ الكلمات والجُملِ من أسنانِ الغبار وأضراسِ السهو أثناء الطباعة.

اضطرَّني ذلك للبحث عن نسخة أخرى أكثر وضوحًا بيد أنها لم تكن أحسن حالا من سابقتها؛ فعدتُ لنسخ الأديب الورقية الأصلية والتي كان يحتفظ بصورٍ مسحوبة عبر «سكان» على حاسوبه، ورغم عدم وضوحها لأنها في الأصل مطبوعة على آلة كاتبة قديمة؛ غير أنني رحت أقارن بصعوبة بين النسختين ورقةً ورقة أثناء النقل والطباعة والتوثيق؛ سيما أنَّ النصوصَ القديمة خلَت بالكامل من التشكيل والهمزات والكثير من علامات الترقيم مما شكّل ذلك صعوبةً في ربط بعض الكلمات بالجمل غير الواضحة، والمشكوك بمرادِها.

أمَّا هذه المجموعة فهي قائمة على الشخصية التي تتغيرُ زاويةُ رؤية القارئ لمكانها من قصة لأخرى، ولا تتغير أبعادُها الأساسية إلا نادرًا؛ إذ تدور الشخصية الرئيسة في ساقية الفقر كحالةٍ يُقدمها الكاتب في أرض مقفرةٍ ذاكرًا معاناتِها وتخبّطاتِها وواقعَها المرير وصراعاتها الداخلية؛ وما قد ينتجُ عن الفقر أو الظلم الذي قد يتعرضُ له الإنسان في مجتمعاتٍ قائمة على الطبقيّة؛ وانعدام الحريّات كنتيجةٍ حتميةٍ لتلك الظواهر.

المشهدُ الحسيُّ المُركّب القائم بشكلٍ أساسيٍّ على الأفعال المضارعة والماضية الذي فصَلَه الأديب بالفواصل أو النقاط؛ عبر جملٍ متتاليةٍ سريعةٍ كثيرةٍ بدا أسلوبًا تقصّدَه الكاتب في اختصارِ المشهدِ الكلّي؛ مُساعدًا ذلك إيّاه على الانغراق في أحاديث النفس ونقل الكلام من الأنا إلى الخارج والعكس، والاتّكال على أسلوبِ الالتفاتِ البلاغي لتسليط الضوء على الشخصيّة الرئيسةِ بكافّة جوانبها.

غير أنه وهربًا من طرحِ الحلولِ والمثاليات في مساراتٍ دراميّة طَحَنت أبطالَ قصصه؛ فقد جنحَ إلى بتر الحدث وحركةَ الشخوص في مناطق ما قبل النهاية في بعض القصص؛ بعد منحهِ نهاياتٍ مفتوحة لقسمٍ منها، والتزامِه بالخاتمة المنطقية للصراع الداخلي للشخصية في قسمٍ آخر.

والحقيقة إن القصة الواحدة في هذه المجموعة اعتَمَدت على الحدث والحوار والسرد بأبعادٍ فلسفية؛ أكثر من الصورة الشمولية للقصة ككل؛ لأنَّ الشخصية _كما أشرتُ سابقًا_ ستنتقل معك بكينونتها للقصةِ التالية وما يليها أو قبلَها بغيةَ استكمالِ دورها وخطِّها الدرامي، مع تغيير طفيف فقط يتعلقُ بملامحها الثانوية والمكان الذي ستتواجدُ فيه؛ فلو حملَ القارئُ بطلَ قصةٍ في هذه المجموعةِ إلى قصّةٍ أخرى بأوجاعهِ ومعاناتهِ ونتاجِ آلامِه؛ لما شعرَ بتناقضٍ سيكولوجية نفسهِ وطباعِه رغم اختلاف الدور المناط به في القصة الأخرى.

ولعلَّ هذا الترابطَ كان المدخل أو المُمهّدَ الإبداعي إلى أسلوبٍ انتهجَه الأديب في "المتتاليات القصصية"؛ الذي ظهرَ جليًّا في المجموعة القصصية الواحدة بشكل أوضحٍ وأكثر عمقًا فيما بعد من أعمال.

لذا... وخدمة لهذا الترابط فإننا لن نجدَ اسمًا واحدًا أو لقبًا ألصقَهُ الكاتبُ بأبطالهِ الرجال الذين لعبوا دور البطولة المُطلقة في جميع القصص باستثناء واحدة؛ بينما منحَ المرأةَ ذلك إشارةً منه ببراعة إلى أن الحزنَ أُحاديَ الاسم بينما يحملُ الأملُ المُتمَثّل بالمرأة هنا أسماءً كثيرة؛ غيرَ أنَّه تداركَ الأمرَ إذ أوردَ اسم «شهوان» الغنيّ في إحدى القصص؛ دلالةً على الشخصية الموازية أو الضدّ لشخصية البطل المُتنقّل من خلال عدّة أدوار في مجموعته معزّزًا بذلك فلسفتَه الأدبيّة التي

تقضي أيضًا بأن للظلمِ وجهًا واحدًا أو مسمّى واحدًا في الأغلب.

ولعلَّ إيمانه بالطرحِ هذا دفعه إلى حملِ «شهوانَه» بمسمّاه وصفاتِه فيما بعد إلى مجموعته القصصية الثانية «جمجوم» كلَّما تطرَّق إلى المفارقات الطبقيّة في الحياة.

وعطفًا على ما سبَق فقد يتعجّبُ القارئ من استشراف الأديب لحالةٍ نعتاشُها الآن في زمن الكوفيد- 19، وقد لا يُصدّق أن قصةَ «شر البلية» كُتِبَت قبل أربعين عامًا على الأقل من الآن، إذ تناولَ فيها تناقضَ الأنظمة بقوانين الحجر والبلاغات، وتخبّطها بتطبيقِ النظام الذي يتكسّرُ حيثما فُرض، ويُلغى حيثما أُقِرَّ، ثم انتقاله في قصة أخرى للحديث عن سبلِ الوقايةِ وأساليب الحجر الصحي والقفازات والكمامات والعدوى من خلال الأنفاس ضمن فانتازيا سوداء _إن صحَّ الوصفُ_ تتمنى أن تظلَّ حبرًا على الورق ومحضَ خيال؛ لا مشهدًا ملموسًا في الواقع.

مظهر عاصف

الرجلُ المُتعبُ وهؤلاء

انطلقَت آخرُ حافلةٍ من الشمال باتّجاه العاصمة. الركّابُ بشعورهم المصفوفة وملابسهم الزاهية ينزفُ من أعطافهم الفرح. ما ينتظرُهم من مسَّرات يساوي أضعافَ جهدِ الانتظار من أول الليل في المحطة. ما يزالُ هناك في الوقت متّسعٌ ليشهدوا احتضار عامٍ مضى ومخاضِ عامٍ جديد.

الحافلةُ من الداخل تتعانقُ فيها أنواعٌ من عطورٍ مستوردة؛ تجعلُ منها حديقةً متحرّكةً لآلاف الزهر. الركّاب من رجال ونساءٍ يزرعونها ضحكاتٍ نشوى وغناء. ليس فيها غيرُ مقعدٍ واحد خالٍ. نِظامُ السائق الخاص ومهنيَّتهِ تفرضُ عليهِ التوقفَ عند كلّ استراحةٍ وإن لم يتحرك هو أو أحدٌ من مكانه لذلك. يثيرُ توقّفَه زوبعةً من الغضب لا تهدأ إلّا بتحرّك الحافلة نحو مقصدها ثانية.

الحافلةُ تسيرُ بلا صوت كأنما عَقَدَ محرّكُها هدنةً موقتة مع هذا الجو الساحر. النسيمُ يتسلل من النوافذ فتى مُرهَقًا. الرجالُ يدخنون السيجار الفاخر ويغنّون. النسوة أسلمَن رؤوسَهن للمساند بحذرٍ كيلا تحلُّ أصابعُ النسيم جدائلهن. يستعرضنَ ضاحكاتٍ حوادثَ ليالٍ مشابهةٍ في سنين خلَت. فتاةٌ تعرفُ قَبلَ ذلك مبلغَ رصيدِها من الجمَال أطلقَت صوتَها بواحدةٍ من أغاني الحب.

أرخى الرجالُ آذانهم فيما رأت النسوةُ في الصوتِ نعشًا لهذا الجمال.

توقّفت الحافلةُ فجأة حيث لا استراحة ولا مراحيض عمومية. مدّ الرجالُ أعناقَهم عبر النوافذ. صعدَ رجلٌ في يده فأس وعلى وجهه لحافٌ من التعب وعشبِ الأرض. خيّم على الركاب لرؤيتِهِ سكونٌ كذلك الذي يسبق العاصفة. تململوا وأطلقَوا ألسنتهم على السائق يذكّرونه بخرقه النظام؛ وأنّهم حجَزوا الحافلة من الشركة لهم لا لنقل الركّاب من الطرقات. سرَت بعد ذلكَ بعضُ الهمسَات الغاضبةِ بضرورة تقديم شكوى بحقّه.

أجالَ الرجلُ عينينِ ذابلتين في وجوه احتَقَنت بالغضب. يحدسُ أنَّ هؤلاء رفدٌ آخر لنهر شاهدَه يتدفقُ من أوّل الليل الأخير في العام؛ أو أنهم ما خرجوا إلا لنزهة ليلية كي يستحمّوا بضوء القمر المكتمل. يشعرُ بالغربة بين هذا الجمع المتجانس. عيونهم تنطق بالعدوان. إحساسه بالغربة يتعاظم. يشعر أن يدًا كشفت عورته عن غير قصد منه؛ وأنه حزمةُ شوك نبتَت سهوًا في حقلٍ من الزهر. يهمُّ أن يعتذر فلا يجد لسانًا يسعفه لذلك.

يقول السائقُ بحزم رغم إدراكه أن الرجلَ سيكون آخر النازلين عند وصول الحافلةِ لمحطّتها الأخيرة:

- كان من الممكنِ أن يتعرضَ له وحشٌ كاسر وسط هذا الخلاء المنعزل. والحافلاتُ العمومية كما تعلمون في إجازة

هذا اليوم كسائقيها... لن يضيرَكم نقلُه من هذه النقطة إلى نقطةٍ أبعد على ما أظن.

قال ذلك بنبرةٍ فيها من الغيظِ الدفين والعنادِ ما فيها فخفَّت أصواتُ الاحتجاج على مضض. ينشطُ الرجلُ بالبحث عن مقعد خال، حينَ يجِدُه وحيدًا بانتظارِه يتهالكُ غائبًا في نوم عميق.

تتحول الأفواه إلى محارقَ ترسلُ غيماتٍ كثيفة من الدخان. تموت ضحكاتُ النسوة. تكفُّ الفتاةُ عن الغناء. أحاديثُ جانبية ترتفعُ برأسها بين الحين والآخر حول وقاحة السائق ومخالفتِه لقانون العمل؛ وضرورة فصله وطرده من عمله، ثم لا تلبث أن تنطفئ تاركةً الصمت سيد الموقف.

تتوقف الحافلةُ أمام استراحة أخيرة بعد أن نسيَ الجميعُ أن هناك رجلًا نائمًا من ساعةٍ دون حراك فيها. لا يتحركُ أحدٌ من مكانه، يتأففون علّه ينطلق وقد أشاحوا بوجههِم عن مشفى يربضُ خلفَها. يشاهدون السائقَ يتحدث مع امرأةٍ ظهرت فجأةً وقد وضعَت يدَها على نافذته؛ كأنّما تحاول أن تتسلقَها. لا يسمعون فحوى الحديث. تغيب المرأةُ عن مرمى بصرِهم للحظات ثم تظهر وبين ذراعيها طفلٌ رضيع يبكي.

وضعت قدمَها على العتبة. نبَّهَها السائقُ بلطف إلى الصعودِ بسرعة. زادت غيومُ الحزن كثافةً على وجهها الجميل. تهمُّ

بالرجوع. بكاءُ الطفل أمسى صراخا يمزّق عباءةَ الليل. أطلَّت أكثر من امرأة برأسها. قلن بصوت واحد:

- يا حرام؛ امرأةٌ وحيدة في الليل وطفل ويبكي.

أبدى بعضُ الرجال تسامحا وشهامة. أشاروا على السائق أن يحملَها بالتأكيد. أشرقَ وجهُه مُشيرًا لها أن تتشجعَ وتصعَد. وقفت المرأةُ في الممر تهدهد طفلَها. سارَت الحافلةُ يغسلُها البدر برفق وحنان. تتشبَّث المرأةُ بالحامل الحديدي كيلا تسقط. ينظر السائقُ من خلال المرآة علَّ واحدًا يُخلي مكانه لها. يقول بأسف:

- ما الذي أخرجَك في هذا الليل؟

ألقَت على الطفل نظرةً ذبيحةً وغمغَمت:

- ابني كان يموت.

التقطَت بعضُ النسوةُ صوتَها. قالت إحداهن:

- مسكينة، طفلُها كان يموت.

قالت الفتاة وهي توزّع من عينيها هدايا رأس السنة على الرجال مُحتلّةً مقعدين بطريقةِ جلوسها.

- لو كنتُ رجلًا لتركتُ لها مكاني.

ونظَرَت باتجاه الرجل المتعب النائم. تململَ شابٌ كان طيلةَ الوقت مشغولًا بصدِّ النسيم عن شعره الطويل. امتصَّ نظراتِ الفتاة حتى آخر قطرةٍ. نظرَ إلى المرأة باسمًا.

- تعالي واجلسي هنا.

أشار إلى فخذيه وضحك. تبعَه الرجالُ والنساء بضحكاتٍ يفجُر بعضُها بعضا. تثنَّت الفتاة في مقعدها وتلوَّت قبل أن يحين أوان الرقص.

أشاحت المرأةُ بوجهها وقبَّلَت طفلَها الذي ما يزال يبكي بحنان. ظلَّ السائقُ يرميهم بنظرات لها زفير ثم أوقف الحافلة واستدار إليهم قائلا بإصرار:

- لن أتحرَك قبل أن يتركَ أحدُكم مكانَه لهذي المرأة.

أقنعَهم صوتُه وملامحُه الصارمة أنه يقصد ما يقول. طافت عيونُهم في وجوه بعضهم بعضا. طاروا بها في أرجاء الحافلةِ إلى أن حطّت على الرجل المتعب النائم. صاحوا صيحة الظَفر:

- هذا المُتطفّل مَن يجب أن يتخلى عن مكانه لها.

هجموا عليه. انتزعوه عن المقعد. فتحَ عينيه مذعورًا ويده ترفعُ الفأس. تفرّقوا عنه مذعورين. عاد الرجل إلى مقعده يهم

بالارتماء في أحضان النوم من جديد. وقعَت عيناه على المرأة والطفل.

يرى أنهما مثلَه حزمة شوكٍ نبتَا سهوًا في حقلٍ من الزهر. يتخضّب وجهُه بالخجل. فرَكَ عينيه يطردُ منهما النعاس. نهضَ مُشيرا للمرأة أن تجلس. ألقَت عليه نظرةً شاملة من الرأس وحتى القدمين. وَشَت ثيابُه لها برقّة حاله. ترجَم وجهُه ما يعانيه من إرهاق وتعب.

تطلَّعت إلى بقية الرجال في الحافلة. ثارت على وجهها زوابعُ قرف وامتعاض. عادت تنظر إلى وجه الرجل المتعب. أجرَت مفارقةً محزنةً مع تلك الوجوه اللامعة أغرَقَتها بالحزن.

ربَتَ على المقعد يدعوها للجلوس. هزَّت رأسَها مُمانِعة. توالدَت همهماتُ ضيق واستنكار لما اعتبروها وقاحةً من كليهما... ألقى الشابُ نظرةً إلى ساعةٍ كبيرة في مقدمة الحافلة تحبلُ بالانزعاج. أسقط أخرى بعجالةٍ على ساعته. أطلقَ صفيرا حادا مُنغّما. نهضَ وصاح مُلوّحًا في وجه المرأة بيديه:

- تتمنعين رغمَ أنّك متطفّلة علينا مثله بينما الليل قد قارب الانتصاف؟!

انتفض الطفل صارخا والتصق بصدر أمه. سدَّدَ إليه الرجلُ المتعب نظرةً حارقة وتحسسَ نصلَ الفأس. استدار الشابُ إلى السائق محتدا.

- لقد فرضتَهما علينا فرضًا وتقبّلنا ذلك رحمةً بهما وشفقةً، وها أنت ترى ألا فائدةً تُرجى من هؤلاء.

انفرشَت في عينيِ السائق نظرةً محايدة. قلَّب يديه حيرة بعدما التفت إلى المرأة.

- لم لا تجلسين؟... اجلسي.

قالت وعيناها تطوفانِ على وجهِ الرجل المتعب. تغسلانه بفيضٍ من حنان:

- ولكنَّه يوشكُ أن يسقطَ تعَبًا ونعاسًا.

نفخ السائق مغتاظًا. يهمُّ بتشغيل الحافلة. يضربُ كفًّا بكف. ينظرُ إلى المرأة بصمت وجفاء. يقولُ الشابُ وهو يغرسُ على ثغر الفتاة قبلاتٍ سريّة من عينيه:

- قلبُها عليه.

ثم وهو ينظر إلى ساعته بضيق.

- كنا نتوقُ إلى رحلةٍ جماعية ممتعة بخصوصيةٍ تامّة؛ لكننَا للأسف أخطأنا بانتقاءِ شركةٍ بمواصفاتٍ عالمية...

أردف رجلٌ يجلس خلفَ الفتاة مباشرة.

- نعم صحيح، كان علينا أن ندفعَ أكثر كي نحظى بمواصفاتٍ أفضل في شركةٍ تحرص على راحةِ مسافريها، لم نتوقع أن يكون الأمر بهذا السوء.

طقطقت الفتاةُ بشفتيها ضيقًا. عَقصَت شعرَها إلى الوراء. قالت وهي تخصُّ الشابَ بنظرة لها معنى واحد:

- العام يلفظُ أنفاسَه أو يكاد.

ردّ على نظرتها بواحدة أحسن منها وقال من أنفه:

- من أين لهؤلاء أن يدركوا قيمة هذه اللحظات؟!

تقلَّصت أصابعُ الرجل المتعب على مقبض الفأس. دار النصل أرضية الحافلة برعونة. صلصل المعدن البارد. يتفجّرُ صدرُه بالغضب. طوى غيظه. أهابَ بالمرأة أن تجلس. قالت بألفة ومحبة:

- اجلس أنت.

تطايرت عليها اللعنات. ألحّوا على السائق أن يمضي. رمى المرأةَ بنظرة لها زفير. أدار المحرك وغمغم بلهجةٍ احترق فيها الصبر.

- خطأ فادح أني حملتك من وحدة الليل رأفةً بك.

انطلقَ مُسرعا يُعوّض الوقتَ الضائع. تنهَّدَ الركّابُ بارتياح. عدّلت الفتاة من جلستها وشرعت تغني بمرح. تسلَّقت الحافلةُ طريقًا مُتعرّجا. تمايلَ الرجلُ المتعب والمرأة مع حركة الحافلة. تحفّز الشابُ ليَصدَّ النسيمَ عن شعره الطويل. قال للمرأة مشيرا إلى فخذيه:

- قلت لك من البداية تعالي واجلسي هنا.

أشاحت بوجهها تقزّزًا وامتعاضا. قطعَت الفتاةُ الأغنية وَوَزَّعت نظراتٍ كانت ترسلُها تباعًا إلى الرجال؛ وانفجرت ضاحكة. تناسلت الضحكاتُ. ضغطَ السائقُ على نواجذِه وداس على دواسةِ البنزين بعصبيّةٍ واضحة. أرخى للحافلة العنان. تمايلَ الرجل والمرأة. كادا يسقطان. علا صراخُ الطفل. عادت الفتاة للغناء. استرخى الرجال يشربون صوتَها ويدخنون. نهض الشابُ مصفّقا طربًا. عيناه على المرأة مستنقعُ شماتةٍ وفجور.

دارت عينا الرجل المتعب دورةً كاملة. يحاولُ أن يخبِّئ غيظه. كل ما حوله يثير حفيظتَه. تنتحر آخرُ ذرة من صبر واحتمال لديه. يضغطُ على مقبض الفأس. يصلصلُ نصلَها الباتر. يقول للمرأة آمرًا وعيناه تفترسان الشاب:

- قلت لك اجلسي.

يندفعُ نحوَه إعصارا مدمرا. يصفعُه صفعاتٍ متلاحقة. يمسكُ به من تلابيبه. ينتزعُه عن المقعد. يلقي به في الممر. يتحفّز مواجهًا لغطَ الرجال والنساء. يتهاتف صوتُ الفتاة. تنشر شعرَها على صدرها وتمسّدُه.

- هذا لا يجوز.

يصوّب إليها الرجل عينين دبَّ فيهما الاحمرار. يجبُرها على خفض بصرها. تُلقي والشاب نظرةَ جريحين على الركاب. يهربون بعيونهم إلى الفأس. يطمّون رؤوسَهم يخبئونها في المقاعد.

يخيّم الصمتُ والسكون. تحومُ عقاربُ الساعة على نفسها راكلةً بقوةٍ الصمت. تتكوّم الفتاة على المقعد قطّةً مبتورةَ الذيل. يحاولُ الشاب أن يجلس بجانب الفتاة. تصدُّه على الفور.

- لقد دفعتُ مقابلَ هذا المقعد الفارغ لأنعمَ بالراحةِ والحرّية.

تنطفئ في عينيه بقايا الفرح والرجاء. يهاجمُه إحساسٌ بالوحدة قاتل. يتمايلُ مع حركة الحافلة. تتشبثُ كلتا يديه بالحامل الحديدي كيلا يسقط. شعرُه فريسةُ النسيم. يتململُ الصمتُ. تنشطُ عقاربُ الساعة وتدقّ معلنةً ميلادَ عام جديد.

يُرخِي لها الرجلُ المتعب أذنيه. يرشحُ منه التعب. يجلسُ ويمدُّ ساقيه. يحاول أن يستسلمَ للنوم. يفرُّ منه النوم. يتفجّر باليقظة

والمرح ويطوف بعينيه على الركاب. يرى أنه وردة نبتت في حقل من الشوك. يبتسم ويستديرُ ناحيةَ المرأة ليطمئنَّ أنها جلسَت وأن الطفلَ قد كفَّ عن البكاء.

- كانَ عليهِ أن ينامَ ليرتاح.

- بكاؤه أزعجَ الركّاب الذين تطفّلنا عليهم، أشعرُ بالندم جرّاء ذلك.

اتّسعَت حدقتا الرجل كمن لم يتوقع أن تتفوه المرأة بهذا الكلام. ارتكزَ على فأسهِ بكبرياءٍ استنكَرَت اتّقادَه فجأةً في جسده وملامحهِ بهذا الشكل.

- إن كنّا قد تطفّلنا عليهم هذه الليلة؛ فهم يتطفّلون علينا طوال حياتنا.

تحرّكَ الطفلُ بين ذراعيها تمهيدًا للاستيقاظ أو البكاء.

- هدهديه كي ينام فلديه متسعٌ من الوقت يكفيه للبكاء كلّما أرادَ ذلك... ثم إنَّ أمامَه رحلةٌ شاقّةٌ حينمَا يصحو تمامًا.

المهزَلة

طاردتهُ زخاتُ المطر من بابِ حجرتهِ الحقيرة وحتى المقهى المواجه للمصرف الكبير. دفعَ البابَ الزجاجي وأغلقَه برجلِه. أحدَث قرقعةً مزعجةً ظهرَت آثارُها على وجه صاحب المقهى القابع برأسه الأصلع في ركنه العتيد. توجَّه إليه بطرفٍ كسير يعتذر. تصدّى له بعينين يفورُ منهما الغيظُ وأشاحَ مُطلقًا زوبعةً من الدخان.

طأطأ رأسَه تحت وطأة إحساسه بالخجل وشعوره بالذنب. يعرف أن ليست القرقعةُ وحدها ما أزعجه... باتَ يلمحُ عليه الضيقَ كلّما حضر ورفاقُه منذ تلك الليلة التي طلبَ منه أن يتأخر ليشرّقَ ويغرّبَ بأحاديثَ عن المَصرِف فتصنّعَ عدم الفهم... منذ تلك الليلة كشرَّ عن أنيابه؛ وبات يلحُّ عليهم بدفع ما كان قد سامحهم به من قبل، ولمّا أخبروه أنهم سيدفعون حال تنفرج كربتُهم شَخَر ونخَرَ قائلا:

- على المُفلس البقاء في داره بدلًا من أن يتعربَشَ على أكتاف الناس.

أقسَموا أنهم سيسدّدون دينهَ في أقرب وقت... فعاد يزمجر وهو يخصُّه بنظرةِ غيظٍ حارقة.

- شبابٌ يطحنون الصخرَ وتطحنُهم البطالة؟!

لا يفتأ يعيّرهم ويتكئ على جراحَهم ويحاصره بالذات. «اللعين يعرفُ الأسباب والنتائجَ ومع هذا يتعجّب. والأعجب حين لا يروق له عدّ النقود إلا على مرأى منه. يعرفُ كيف يضعه وجها لوجه مع الحيرة والندم».

رفعَ رأسَه ببطء. نظرَ إلى الزاوية حيث اعتادَ ورفاقه الجلوس. ألقاها خاليةً منهم. تتجلّى في عينيه الدهشة. لا أثرَ حتى للرجل ذي الكرش المنتفخة الذي داوَم على الجلوس بالقرب منهم؛ مُذ لفَتَ صاحبُ المقهى نظره إلى المصرف وتصنّع بدورهِ عدمَ الفهم.

حتى المقهى يراهُ شبهَ خالٍ من الرواد، لا صوتَ فيه ولا نأمةَ وابورٍ يهدرُ تحتَ سخّانٍ ماء يغلي ويتصاعدُ منه بخارُ ساخنٌ إثرَ حلقاتٍ ترقصُ ساخرةً من البرد الساكن في عظامه والطرقات. خلعَ عنه معطفَه الرث. حاول أن يعلّقَه على الشَجَّاب. صاح به صاحب المقهى بصوته الغليظ: إيَّاك...

تشنّجت أصابعُه وارتسمَت على وجهه علامةُ استفهام كبيرة. جاءَه الجوابُ من سحبةٍ طويلة قرقرَ لها الماءُ في النارجيلة؛ وكذلك من سيلٍ يقطرُ به ذيلُ المعطف صانعًا بركةً صغيرةً عند قدميه. هزّ رأسه بأسف. «ليست هذه البركة هي السبب في غضبته ولا القرقعة... لطالمَا تلقّاك ورفاقك بفيض من البشاشة ولطالما أعفاكَ وأعفاهم الحساب...

ولكنه باتَ يتكلمُ من أنفه منذ تلك الليلة التي طلبَ منك أن تتأخر... ظننتَ في البداية أنه سيغضُّ النظرَ عن كونك أمضيت خمسةَ أعوام في السجن بتهمة السرقة؛ وأنه سيُلحِقُك بالعمل عنده... غازَلَتك النقودُ بين يديه من كلِّ حجم ولون... حسبتَ أن ستصيب جزءًا منها ولكنه ظلَّ يداعبُ أعصابك بشراسة قبل مداعبته أحلامك».

رآه يسرقُ النظرَ إلى المصرف وهو يميل برأسه عليه.

- إلى متى ستظل ظامئًا والماء ينسابُ من بين يديك؟

تسمّرت عيناه على النقود. سالَ لعابَه ولم يفهم.

- تستطيع ورفاقُك أن تعملوا المستحيل، فالشاب منكم يقفزُ مئة ياردة بحجلةٍ واحدة.

قلَّبَ يديه ولم يفهم «المديرُ علّمك الحذرَ والصمت. خدعَك طويلًا بكلام مُنمّق ولمّا فهمته أدخلَك السجن». ألقى على المصرف نظرة مباشرة، وقال يتلمظ شرَهًا:

- النقود داخلُ الجدران إذا رأتها العجوزُ الشمطاء تعود ابنة أربعة عشر.

أطلقَ زفرة أخرى:

- ما الفائدةُ وهي بالنسبة لي كزرع إبليس؟

قهقَه ملءَ شدقيه وربتَ له كتفَه.

- الشاطرُ يحلبُ النملة، ويمتصُّ دماءَ البعوضة... هل تفهم؟

«ولم تفهَم... بل تصنَّعتَ عدمَ الفهم... لم تسرق الشركةَ ومع هذا نقَصَ عمرُك خمسة أعوام... وحين خرجتَ طاردَك السجنُ عفريتا يظهر لك في الصحو والنوم... أمّا المديرُ فظل طليقًا ونزيها».

- ماذا جرى؟ هل تحلم؟

تنبّه إلى الصوت الغليظ. كان المعطفُ قد أغرقَ منه القدمين. طواه وقصَد الزاوية... غرقَ في البحث عن سببٍ واحد يمنع رفاقه من المجيء على الرغم أنهم مثله بلا عمل؛ يهربون من غرفٍ عارية من الأثاث والدفء ليقتلوا الوقتَ أو يقتلَهم بلعبِ الورق والزهر... «لماذا تأخروا؟».

جالَ بعينيه في أرجاء المقهى. هالَه اتّساعُه وندرةُ الرواد. أرجَع ذلك إلى المطر الواصل بين السماء والأرض. «ولكن لا يثنيهم شيء مهما عَظُمَ عن المجيء... هنا يتوفر لهم الدفء المنبعث من أنفاس الزبائن ومن الوابور الذي يهدرُ أسفل السّخان... لماذا تأخروا؟»..

خشخشَ البابُ الزجاجي خشخشةً طويلة. عادَ وعبسَ حين رأى الرجل المكتنز يدخلُ تسبقُه كرشُه المنتفخة. هبَّ صاحبُ المقهى واقفا وأمطرَه بسيل من الترحاب. ردّ عليه الرجل بهزّة خفيفة من رأسه الضخم؛ ومضى ليجلس في الزاوية تقوده عينا صقر جارح.

تململَ في جلسته. انهال إحساسُ مضنٍ بالغربة وشعور بالضياع. غزاه حنين جارف للرفاق كأنه لم يقابلهم من سنين. «وجهُ هذا الرجل وعيناه لائحةُ اتهام... مُذ لفَت صاحبُ المقهى نظرَك إلى المصرف وأنت تراه قريبا منك يتصنّع قراءةَ الجريدة بينما يختلس إليك النظر. لم تره ولو مرة واحدة برفقة واحد ولم تسمعُه يتكلم... رفاقك يظلّون لاهين عنه باللعب ولكنك لاحظتَ أنه يفترسُهم بعينيه الجارحتين فردا فردا دون هوادة».

يتململُ. يحسُّ وكأنما هو جالسٌ على حزمة شوك. يدير بصره في الأرجاء. تتسمر عيناه على الباب. يسحبُهما إلى صاحب المقهى. يلمحُ على فمه ابتسامةٌ شامتة. يُرجِعُها إلى كونه انتصر عليه بمنعهِ من تعليق المعطف. يحدّق بالباب. «لماذا تأخروا؟».

هرَعَ النادلُ إلى الرجل بفنجان قهوة تسبقُه ابتسامةٌ بعرضِ وجهه الصغير. جعل يرتشف منه بصمت وهدوء.

كان يعجب من مُداومةِ هذا الرجل على الحضور مع ما يرافقه من مجاملة زائدة من صاحب المقهى والنادل على السواء. يعجبُ الآن أكثرَ لحضوره في مثل هذا الطقس اللعين. «هيئته لا تدلُّ على أنه هرب مثلَك من حجرة عارية من الأثاث والدفء... كرشُه المنتفخةُ بما فيها من شحمٍ ولحم مدفأةٌ أبدية... ومعطفه الصوفي يغرقُ فيه حتى أذنيه... ليس البردُ حتما ولا البطالة ما يدفعان بهِ إلى المجيء.

تكادُ تشمُّ رائحةَ النقودِ في جيبه وكرشه. أما أنت فحين تُدخِلُ يدَك في جيبك تَخرج بيضاء من غير سوء... وإذا نظرت إلى صدرك من فوق القميص فتكاد تضعُ أصابعَك على كل ضلعٍ فيه... أمّا حجرتُك فيهتزُّ خصرُها لكلِّ هبَّةِ ريحٍ ذارفةً الدمعَ لكلِّ غيمةٍ ممطرة... من أين يأتيك الدفء والأمان والاطمئنان؟ من أين؟».

امتدَّت يدَه تفتحُ طاولةَ الزهر التي ما تزال مغلقة مذ تركها ورفاقه بالأمس. يعبثُ بحجارتها دونما وعي. يتعاظمُ صوتُها على هدير الوابور وعلى قرقرة الماء في النارجيلة. يلمح جارُه يسترقُ إليه النظر. يبادله نظرة مُحرجة. يرتّب الحجارةَ بصمت. يحاول أن يتسللَ بعينيه إلى ساعةٍ في معصم الرجل يخفيها عنه في كمِّ المعطف.

«تأخرُ رفاقِك يُقنعُك أن تُخرِجَ هذا الرجلَ عن صمته وعن محاولةِ استراقهِ النظر إليك... ستلاعبه الزهر... ستعلّمه إن كان لا يعرف... المهم ألّا تظلَ ساكنًا ينهشُك البرد وعيناه الجارحتان لقمةً سائغة».

ظنَّ أنه سمع صوتا بالقرب منه. التفت إلى الرجل مُستطلعًا. قال هذا مشيرا إلى الحجارة البيضاء والسوداء وفي عينيه تتوالد نظرة شرسة.

- أقول إنك توزع الحجارة بأشكال هندسية منتظمة!

أومأ برأسه باسمًا على فمه ابتسامة مجاملة. «صوتُ هذا الرجل أكثر فظاعةً من عينيه... ليته ظلَّ صامتا... لماذا تأخر الرفاق؟».

- غريب أن تلعبَ وحدك!

قلّب يديه حيرةً وغمغم:

- لا أجد من يلاعبني.

حاول أن يسأله إن كان يرغب باللعب. طردَ هذا الخاطر. قال بزهو غير مبرر:

- الآن سيأتي رفاقي.

تلمّظ بابتسامةٍ شرِهَة مع حثالة القهوة. قال بصوت كالفحيح:

- وما يدريك؟ ربما لن يأتوا بالمرة.

تلفّت إليه مُستغربا فاستدرك.

- من الذي يخرج من بيته في مثل هذا الطقس اللعين؟

رفع حاجبيه دهشة. ضغطَ الرجلُ على أسنانه وعيناه لا تكفّان عن محاصرته بتلك النظرة الشرسة المجّانية.

- حضوري من صميم عملي.

ماتت أصابعُه على الحجارة. تغدو الطاولةُ أمامَه تابوتًا يضمُّ رفاتَ يديه. غمغم بلا وعي:

- عملك؟!

هزَّ رأسَه مُتصيِّدًا لحظاتِ ضعفه بنظرة عينيه.

«كنت تظنُّ أن عملَ المدير ينحصرُ في الإشراف على سير العمل والقبض والصرف. لم تسأل نفسَك ولو لمرة واحدة من أين تجري النقود بين يديه كخيلِ السباق! ولا لماذا كان يعاملك برفق ويكافؤك كلما وقَّعتَ على فاتورة بيع أو شراء. ظللت مغفّلا ولم تفهم إلا في آخر لحظة ماهية عمله بالضبط».

زحَفَ الرجل بالكرسي حتى جلس قبالَته. غرسَ عينيه فيه حتى القعر.

- أتعتقد أنني لا أفهمك؟

«منظرُ هذا الرجل وكلامُه الفارغ يغريانك بأن تصفَعه... العراكُ وسيلةٌ ناجعة للتنفيس وشراء الدفء بالمجان... كان عليكَ أن تضربَ المديرَ وأن تحطّم رأسه وهو يتّهمك بالاختلاس. بعدما نفذَت رائحتُه إلى كل أنفٍ لم يجد غيرك يمتطيه ثم يُلبسه التهمة».

قال الرجل وهو يدقُّ على المنضدة بما يوافق صوته الغليظ:

- تأكَّدَ لي الآن أكثر أنك ورفاقك تدبّرون خطة جهنمية للسطو على المصرف... ولكني تعوّدتُ أن أسبقَ الجاني بخطوة.

وأشار ساخرًا إلى البناية الضخمة التي ينام عند قدميها المقهى فَرْخًا جفَتهُ أمّه. رآه يتبادلُ وصاحبُ المقهى نظرةَ ود وتفاهم. يشعر وكأن عنكبوتًا ضخمة تبني حوله بيتًا مُحكمَ النسيج.

«ابتسمَ المدير ابتسامةً عريضة وأخبرك أنه سيجعلك تركبُ الريح. رفضتَ أن تمدَّ يدَك إلى مال الشركة. قال لك: أنت حر. تصنّعَ الهدوء ولكنك لمَحتَ ما في عينيه من تهديد ووعيد. كان منظرُه في غاية البراءة ومع هذا فهو يسرق الكحل من العين».

دق الرجلُ رأسَه بسبابته:

- أنت العقلُ المدبّر لعملية السطو.

ثم وهو ينقل أصابعه على الحجارة البيضاء.

- هذه تمثل طرق الاقتحام والهروب.

يتوغل فيه بعينيه ويغمغم.

- والسوداء هذه تمثل عصابتك التي لن تأتي.

«آن لك أن تضحك حتى تنفجر. حين قبض الشرطي على ذراعك في حضرة المدير ضحكتَ طويلا حتى اغرورقت عيناك بالدموع. لو طاوعتَه لظلَلت طليقًا ونزيهًا مثله».

- تضحك؟!

ثم هبَّ واقفا فجأة وزعق:

- رفاقك الآن في قبضتي، وأنت آخر من ألقي عليه القبض ليعترف.

فغرت فمه الدهشة، تساقطت الحجارةُ من يده محدثةً خشخشة طويلة كزخات المطر التي طاردته من باب حجرته الحقيرة؛ وحتى باب المقهى المواجه للمصرف الكبير.

الحزنُ الأبيض

سرَحَ ببصره بين هذا الحشد الهائل من المُشيّعين الذين ضاقت بهم الحديقةُ على اتساعها. يحاولُ عبثًا أن يتوصلَ للعدد الحقيقي لكل هذه الرؤوس ذات الشعر المصفوف بعناية. يرى أنَّ عدَّ السيارات الرابضةَ على صدر الشارع أسهل. يتكاسلُ عن النهوض.

يشرعُ بعدِّ أعقاب السجائر التي دخَّنها بنشوةٍ لم تزره مذ تركَ القريةَ الصغيرة إلى هذا القصر الكبير في هذه المدينة الكبيرة. تمنّى لو تتكررُ النكباتُ في هذا القصر فيقبضُ على أيام مماثلة لهذا اليوم الذي ماتَ فيه سيدُه.

لا يذكرُ أنه طيلة ثلاثة أعوام قضاها هنا أخذَ إجازةً ولو لساعة واحدة. ثلاثة أعوام ظلَّ فيها كعامِلةِ النحل يسعى من غير أن يجفَّ على جسمه العرق. يتمنى لو يطول هذا اليوم فيحظى بأكبر قدرٍ من الراحة أثناء مراقبته شكلَ حزن السادة الكبار. يمدُّ ساقيه باسترخاء.

يسحبُ أنفاسا عميقة من سيجارته. يحبس الداخلَ من دخانهِ في فمه أطول مدّة ممكنة ثم يطلقها بفرح صبياني حسدَ عليه نفسَه؛ فتوقّع أن يدفعَ بطريقة أو بأخرى ضريبةَ هذا الفرح.

استعاذ بالله وأقسَمَ في سرّه إنه مسرور فقط لازدحام الحديقة بالمشيّعين مما يتعذّرُ عليه أن يحملَ الفأس لينكش التربة حول الأزهار ويشذبها ويرويها، أما تنظيف الكلب وإطعامه في الوقت المحدد فلا يعتقد أن ما حدث سيعفيه منه.

تلصص من بين الأرجل والسيقان. رأى الكلبَ مقعيًّا أمام بيته في الركن المقابل للكوخ الذي يقطنه وزوجه. شاهدَ فروه الغزيرَ يلمع تحت الشمس لمعانًا يفوقُ لمعان الطوقِ الأصفر حول عنقه المكتنز. تذكّر آلافِ المرات التي تمنّت زوجُه لو يتحول هذا الطوق إلى أساورَ في يديها؛ والآلافَ التي تمنّى لو يبادله هذا الكلب السَكَن.

عضَّ على السيجارة بعنف. لوى عنقه إلى الداخل. رأى زوجه منهمكة بإشعال وابور الكاز. نادى بصوت خفيض:

- حليمة.

التفتت نحوَه وعلى وجهها تلك الابتسامة التي لا تفارقه. ابتسم لها بدوره. عادَ يتطلّع إلى الأجساد التي تطفحُ بها الحديقة. عاودته الرغبة بمعرفة العدد الحقيقي لكل هؤلاء... يشغلُ نفسه بتخمين ماهية أعمالهم. يتوصل إلى قناعة أنهم لا يكدّون كدّه ولا يشقون شقاءه... يهزّ رأسَه بأسى. يسمعُ حليمة تدندن بأغنية طالما سمعها منها في القرية قبل الزواج.

يتدفقُ إليه السرور. يود لو تواتيه الجرأةُ فيشاركها الغناء أو على الأقل يأمرها أن ترفع صوتها أكثر. يرى بعضَ الرؤوس تستدير ناحية الكوخ بامتعاض. يتسلّلُ إليه الخوف. يلوي عنقه إلى الداخل. ينادي مُحذّرا:

- حليمة!

للتو التقطَت اسمَها وأدخَلته في اللحنِ المُغنّى لتترنَّمَ به. عاد إليه الشعور الدافق بالسعادة. يضحكُ مُخفيًا أسنانه بيديه. ينسحب إلى الداخل. يقول بانبساط:

- جزاك الله خيرا يا حليمة، ماذا لو سمعوك تغنين ورأوني أضحك؟

فركَت عينيها من البصل، وتمخَّطت بكم ثوبها قائلة ببرود:

- وهل تظنّهم يعرفون الحزن حقا؟

تنهد بحرقة.

- آخ... آخ. أذكر يومَ وفاة والدي... كان الكلُّ مشغولًا بالجري وراء الرغيف. فلم يمشِ معي في جنازته غيرَ كلبنا الأغبر... هل تذكرينه؟

- والدك؟!

- لا يا حليمة... أقصد كلبنا الأغبر.

رنَّت ضحكتُها بلا تحفظ. هجمَ عليها تسبقُه يداه إلى فمها وعيناه على الخارج بخوف.

- كيف لا أذكره وقد كنتُ الوحيدةَ من بناتِ القرية التي يهزُّ لها ذيلَه؟

ونظرَت إلى الركن المقابل عابسةً وأردفت.

- ليسَ مثل هذا اللئيم ذي الطوق الأصفر.

ألقت نظرةً حزينة على يديها العاريتين. بينما قال بأسف:

- كان يغتسلُ بالتراب. لم يعرف جلدُه الماء إلا في الشتاء.

- والدك؟!

- كلبُنا الأغبر.

أشارت بإصبع مرتعشةٍ إلى الركن المقابل كأنما تدخلها في عين الكلب المكتنز.

- آه... أمّا هذا فسيستحم كل يوم بالماء والصابون.

- مسكين هو أيضًا... ماتَ بعد والدي بشهر واحد.

- من؟

- كلبُنا الأغبر.

- آه... دفناه معا... هل نسيتِ؟

- نسيتُ ماذا؟

- أنّا دفناه معا؟!

- والدُك؟

- كلبُنا الأغبر.

هزَّ رأسَه فيما راحت هي تدندن بأغنية حزينةٍ فشاركَها الغناء بصوت هامس، حتى إذا سمعَا جَلبَة في الخارج؛ قفزا معا وتلاصقا عند الباب.

رأيا النعشَ محمولا على أعناق الرجال ينزلون به الدرج الطويل العريض. مدَّ رأسيهما إلى الخارج أكثر. تلاصقا أكثر. تلاقت منهما العيون في نظرة طويلة حاسمة. ينسيان للحظة ما يدور في الخارج. توقظهما أصواتُ التهليل والتكبير.

يبتعد عنها قليلا. تهجمُ عليه موجةٌ من تأنيب الضمير. يغمغم:

- لو كان لدي غير هذه الثياب لشاركت في حمل النعش.

قرصتهُ في فخذه وقالت من بين أسنانها:

ـ حقّا؟! لتكون بينهم كالجمل الأعرج؟! اسكت... اسكت. ليحمِلوا ولو مرةً واحدة شيئا ما في حياتهم، أما أنت فيكفيك حمل الفأس من طلعتِها إلى مغيبِها.

ثم وهي تنظرُ إلى الكلب بحقد:

ـ وتنظيف هذا العزيز المدلل. آخ... آخ. لا يغيظني شيءٌ قدر ذلك الطوق في رقبته.

ـ أنت تتمنين الطوق وأنا أتمنى البيت فمن سينال مرادَه أولًا يا ترى؟

غرسَت أصابعَها في فخذه مؤنّبة:

ـ وتريدُ أن تشاركَ في حمل النعش؟

ـ أستغفر الله يا حليمة.

ولما بانت له يدُ الفقيد ممدوةً خارج النعش فارغة تقبض على الريح؛ نبَّهَها إليها.

ـ أرأيتِ؟ ماذا أخذ من كل هذا العز والثراء؟

رمته بنظرة جانبية وغمغمت.

ـ وماذا ستأخذ أنت أو أنا لو كان الأموات يأخذون؟ هه؟ هو على الأقل كان بإمكانه أن يأخذ ما يكفيه وزيادة لو استطاعَ أن يأخذَ خمرَه وقمارَه إلى هناك.

ـ حرام عليك. اطلبي له الرحمة.

ـ أمَا كان الأفضل لو أنه أوصى لك بدينار زيادة على راتبك الزهيد بدلا من هذا التظاهر الكاذب بالورع؟

وربتَت على كتفه قائلة:

ـ يدهُ الممدودةُ هذه لا تسمن ولا تغني.

التفت نحوها بانكسار وغمغم:

ـ ليته فعل.

التقَت عيناه بعينيها في تلك النظرة الطويلة الحاسمة ثم ندّت عنهما التفاتة إلى فراش مطوى في ركن من الكوخ. انسحبا إليه متلاصقين وقد أغلقا من ورائهما الباب.

بيتُ البطيخ

اعتدلَ سيّدُ البلدة على ظهر جواده الأدهم؛ يرصد الرجالَ من خلف نظارتِه السوداء. رآهم خليّة نحلٍ دائبة الحركة. يرفعون الحجارةَ والبلاط وجدرانَ قصره الجديد التي تعتلي الربوة بثبات.

حاول أن يعدَّهم ليُوقعَ بمن تخلّف منهم أقسى عقاب. حركتُهم الدائبةُ وقناعتُه أن لن يعصي أحدٌ أمرَه جعلته ينتفخُ زهوا. «أنتَ الآمر الناهي وكلُّ من في البلدة يحسب لك ألف حساب. لقد ولّى عصرُ التذمر وتلكُ النغمة النشازُ عن عَرقِ العاملِ والأرض والأجور؛ بعدما زججتَ مروجي هذا الكلام في السجن؛ وختمَت على أفواه الجميع بالشمع الأحمر».

سرَّح بصره في الأرض الشاسعة. سرَّه أن تكون كلُّها له، يسعى فيها الصغير والكبير ليصبّوا من بعد في جيبِه الغلال. عاد يرقبُ الرجال النحل. شرع يقرعُ حذاءه الطويل قرعاتٍ رتيبة منتظمةٍ بالسوط. يتخيّل الحالة التي سيكون عليها القصر دون أن يكلّفه شيئا يذكر؛ فالحجارة من أرضه وهؤلاء الرجال منذ البدء قد علّمهم القناعةَ فما عادوا يطالبون بأكثر مما يملأون به البطون؛ رغمَ أنه كثيرٌ عليهم أيضًا كما يقولُ ذلك مرارًا.

أجرى مقارنةً بينهم وبين الدواب فرأى أن هذه تكلفّه أكثر. تذكّر نابليون. لا يدري لماذا! لكنه تذكَّره. رأى رسمًا له ذات

مرة وهو في قمة مجده وعنفوانه ممتطيًا حصانا يستعرض الجيوش. تحيَّرَ إن كان الحصانُ مثلَ حصانه الأدهم. هز رأسه. «اللونُ لا يهم ما دامَت السطوة واحدة». تعبّأ بالزهو. أغمضَ عينيه نشوة. رأى بعين خياله القصر مشرعا على الربوة تحيط به أشجار الصنوبر والسرو؛ وبيوت القرية كلّها تتكوم عند قدميه، تتمسحُ بها قطةً جرباءَ وهو لايكفُّ عن ركلِها حتى يتسنزفَ آخرَ قطرة من موائها ودمائها.

فتح عينيه على الرجال. ما زالوا خليّة نحلٍ دائبة الحركة. نزف خاطرُه سؤالًا أقلقه. «ترى هل وجودُه السبب في نشاط هؤلاء؟». قلقلَ رأسه بالنفي وسافرَ بعينيه في الأرض الشاسعة. «على كل شبرٍ منها بساطٌ أخضر من غير أن تكون على رؤوسهم دائما... فزوجُك الحبيبة تقطعُ الليلَ بالسهر، لا تتركك تصحو قبل الظهر، وما أن تتناولَ إفطارك وتشرب القهوة وتدخن الغليون؛ وتقوم بنزهتك اليومية على ظهر الحصان حتى تكون الشمس زاحفة على أربع باتجاه الغرب. ليس لديك وقت تضيّعه في مراقبة أهل البلدة. ومع هذا يسابق الصغير منهم والكبير فتجري الغلال إلى جيبك ذهبا أصفر... نابليون كان قطعًا يحققُّ جنودُه الانتصارات الباهرة دون أن يكون على رؤوسهم دائما. إنها الهيبة والسطوة والجبروت ليس إلا».

رأى الجدرانَ وقد ارتفعت بشكل ملحوظ. تساءل إن كان يضيّع وقتَه بالوقوف على حساب نزهته اليومية؛ حيثُ يملأ صدره بالهواء النسم ويُكسِبُ حصانه لياقة بدنية يحسده عليها سادة القرى المجاورة. «سيترك هؤلاء الآن وسيعود ليرى القصر وقد غدا ربوةً ثانية. إنه متأكد من أن غيابه كحضوره يدفعهم للجد والعمل... إنك دائمُ الحضور. لك في رأس كل منهم حجرةٌ مفروشة، تنام فيها وتصحو. تدخنُ الغليون وتشرب القهوة وتقيم الولائم للأوفياءِ من أصدقائك خارج البلدة دونما اعتراض من أحد... لقد ذهبَ عصرُ التذمر وتلك النغمة الدخيلة عن العامل والأرض والأجور. لن يقلقَك بعد اليوم شيء.... نابليون إن كان أخيرًا سقطَ فقد خذلته السماءُ فقط والظروف».

لكزَ الحصانَ. مشى به الهوينَا. ظلَّ مشدودَ القامة والسرج من تحتهِ سفينةُ القيادة في أسطولٍ ضخم. اخترق حشدَ الرجال. رأى عن قرب مزاريبَ العرق تتدفق من وجوههم والصدور. وكذا العيون رآها تحدّق إليه ثانية لا يطفؤها الرصاص. تقبضُ النظراتُ الماحقة على قلبه تعجنه. بات يضيق بهذه الحركة الدائبة وهذا الصمت. يودُّ لو يسمع غناءَهم وحداءهم كما يفعلون في الحقول.

يتخيل نفسه عقربًا تحيط به نارٌ حامية وهو عبثًا يجاهدُ للخروج. يذكر أن مثلَ هذا الإحساسِ الماحق بالخوف داهمَه ذات مرة من قبل حين كان عائدا من المدينة؛ وغرقَت سيارتُه

في الوحل. عجزَ الرجال يومها أو تظاهروا بالعجز. أحدقوا به يمطرونه بنظرات الشماتة والحقد إلى أن جاء رجلٌ مشهود له بالقوة؛ حمَل السيارة بين ذراعيه كالجدي؛ ووقف منتفخَ الصدر زهوًا يلملمُ الإعجاب من عيون الرجال والنساء.

أمّا هو فظلوا يسلقونه بالشماتة والحقد. لحظتها شعر أن أيامَه ستكون معدودةً في البلدة إن لم يتصرف بحزم وشدة. امتدت يدَه إلى صدغِ الرجل القوي بلطمةٍ مفاجئةٍ موجعة، وانهال عليه بالصفعات. قتلَ فيه الزهو واستردَّ هيبته التي كادت على وشك أن تضيع... يومَها انتصر في معركة حاسمة كان خسرانُها سيزلزله من الأركان، بينما ظلّ الرجلُ القوي كبقية الرجال في البلدة يتمسح به كلبًا جائعا.

«لا أراه الآن مع الرجال! لا بد أنه في مكان ما ينقل الحجارة كالثور ويتجنّب أن أراه كي لا أصفه ثانيةً... لا حاجةِ لي الآن بتلطيخ يدي بعرقه أو رؤيته طالما أنه يعمل كما أريد».

لكزَ الحصانَ لكزة أقوى. قفز به قفزةً كادت تطيح به. داس في طريقه اثنين من الرجال. لم يلتفت ليرى إن كانا قد نهضا وتابعا العمل. قبل أن يخرجَ من دائرة الورشة جَفل الحصان وتراجع مذعورا. كاد يسقط. رأى فتى ناضر الوجهِ غزيرَ شعرَ الرأسِ والصدر يخرج من إحدى الحفر.

ماج في صدره الغيظ. سوَّلت له نفسُه أن يؤدب الرجال بهذا الفتى فيسجل كرّة أخرى نصرًا حان آوانه في موقعة حاسمة. رفع السوط. شيء ما في عيني الفتى صلَّبَ ذراعَه فتدلّت إلى جانبه جثّةً بلا حراك. «من الخطأ أن يظلَّ فتى كهذا خارج السجن». جمعَ فلول شجاعته:

- ما الذي كنت تفعله هنا؟

بسطَ يديه بحجارة صغيرة دون كلام. هزّ رأسَه برضى مصطنع، ثم لكز الحصان لكزة موجعة وَسَاطَه بقوة. قفزَ من فوق الحفرة ساحبا سيلًا من الحجارة أصابَت رأسَه بالدوار. حثَّ الحصان على الجري وشعور ما يداهمُه أن الحجارةَ في يد الفتى ستنهال عليه تباعًا دون سابق إنذار.

دار من حول البلدة مُتجنِّبًا دخولها. تجربته مع الذباب والكلاب وعيون الأطفال المصابة بالرمد تفقدُه الشهيّة لمدة يومين على الأقل. منظرُها من بعيد يثير الكره والاشمئزاز في نفسه، أما عن قرب فتبعث التقزز. تذكّره بمقبرة مهجورةٍ تقطُنها الجرذان.

صهلَ الحصان فصهَلت من بعده الأوديةُ الخضرُ والسفوح. عادت إليه نفسُه الذاهبة. تذكّر نابليون وهو ينفخ في البوق ليبدأ جنوده الزحف. شرَع يقرع حذاءه الطويل بالسوط. توغّل في حقل من القمح. سنابله تشرئِبُّ رماحُها متوترةً فيقبّل ثغرَها

النسيم. هجم الحصانُ على قبضةٍ منها وراح يمضغها على مهل.

ربتَ على عنقه وطفقَ يغزل من عرفه الطويل جدائل وينسج في رأسه الأفراح. لم يفطن أن الحصان تجاوز به سنابلَ القمح إلا بعد أن توقف وسطَ حقل من البطيخ ليبول.

شدّ الجدائل وقهقه بانبساط. «ذكي، تعرف أن هذه الأرض كلها لي، فتأكل من حيث تشاء وتبول حيث تشاء».

ماتت الضحكة في شدقيه. تصلَّبت عيناه على رجل ينكش الأرضُ بحثًا عن عيدان الموسم الفائت. انتهرَ الحصان فانطلق يعدو بسرعة مذهلة. تبين له أنه الرجل المشهود له بالقوة وأنه مَن حملَ السيارة كالجدي. هاجمَه شعورٌ ماحق بالخوف. سحبَ اللجامَ فجأة. دار الحصانُ دورة كاملة وتوقّف عن الركض يصهل باحتجاج.

انتصب الرجل واقفًا. أطلقَ صرخةَ فزعٍ حالما رآه. سقطَ ما جمعه من عيدان. صهلَ الحصان بقوة فهرولَت إليه الثقة الذاهبة بالنفس. جعلَ يدور من حوله. يثقبه بنظرات حادة. حدّق إلى صدره العريض وساعديه القوتين. خطر له أنه يستعد ليحملَه والحصان فيدك بهما الأرض دكا. زلزلَه الخاطر. أشاح بوجهه يخفي اضطرابه. تذكّر كيف استعاد هيبتَه يوم حادثة السيارة.

تحققُه الذكرى بقوة طغَت على إحساسه الراهن بالخوف. توقّف عن الدوران بحصانِه وراحَ يرسلُ إليه نظرات باردة مُشبعةً بالاحتقار. قال وهو يقرعُ حذاءه الطويل بالسوط قرعاتٍ رتيبة منتظمة:

- إذن فقد عصيت أمري؟!

فتحَ الرجلُ فمَه ببله. بسط يديه دلالة عدم الفهم. سرَّه أن يكونَ جهلُه بالأمر هو السبب. «إذن فما تزال سطوتي قائمة على أركان أربعة». زعقَ وهو يلهبُه بالسوط بزفراتٍ متتالية:

- لا ينفعك التغابي أو الغباء.

أقنعَه سكونُه وتراجعه بأن سطوتَه مطلقة. حلّ حزامه الجلدي ليربطَه. حالته الرثة بعثت في نفسه التقزز والبغض. تلفّت حوله. لم ير غير خيوط من البطيخ دقيقة. أشار عليه أن يأتي بواحد منها. ربَط يديه خلفَ ظهره ودفعه برجله صائحا:

- إلى موقع العمل... سيحل الرجال وثاقك.

سار يكملُ نزهته اليومية محاولا التخلّص من الضيق الذي سببه له هذا الأبله. «نابليون إن كان أخيرا سقط فقد خذلته السماء فقط والظروف» صهلَ الحصان الذي لا يهتم للونه طالما لم يحمل سواه يومًا على ظهره.

حين أطل الرجلُ القوي، كان الرجالُ ما زالوا خليّة نحل. توقفوا عن العمل حال رؤيته على تلك الحالة. هتفوا بصوت واحد:

- ما هذا؟

سقطَ على الأرض تعبًا وإعياء. قال بصوت واهن:

- السيد.

هبط الصمتُ والدهشة على الرجال. أطلقَ الفتى ضحكة مغلولةً. انحنى على الرجل القوي يشبعُه تقريعًا ولومًا.

- حتى أنت؟

جعل يحوم من حول الرجال ملوِّحا بالخيط الدقيق ويرميهم بنظرات باردة مُرددًا:

- ولم العجب؟ نحن مثله أيضًا... فلمَ العجب؟

نكّسَ كلٌّ منهم رأسه بخزي. أطلقَ الرجل القوي صرخةً هائلة وطفقَ يعفر رأسه بالتراب. شرعَ يحدّثهم عمّا كان من السيد. راح الفتى يُذكي النارَ في خيوط الكلام حتى اشتعلَت الصدور اليابسة بالغضب..

زام الرجال من حوله ثأرًا لكلِّ شيء. تسارعوا إلى الجدران السامقة بالمعاول. وقف الفتى في طريقهم قائلا بحزم:

- إنّه جهدنا وعرقنا... لن نهدمها... بل سنهدمُ شيئًا آخر.

استطرد وهو يجمعُهم في دائرة محكمة من حوله.

- فلننتظر حتى يعود.

وثبَ الرجل القوي وصاح ملوّحا بقبضته وقد دبّت فيه العزيمة:

- انتظروا أنتم... أمّا أنا فلا أستطيع الانتظار.

وانطلق يعدو قابضًا بين أسنانه على الخيط الرفيع.

لحقوا به حين لم تحمل الريح لهم أي خبر عاجل، قطعوا حقول القمح لاهثين حتى فتحَت أعينُ الطريق لهم جفونَها؛ لتشعَّ من بعيدٍ صورةٌ ضبابية لرجل يحمل على ظهره شيئًا ما أشبهُ بالجدي.

راحوا يركضون بينما راح صوتٌ يركضُ باتّجاههم على تموّجات الريح... حين اقتربوا أكثر بدا واضحًا أنهُ صوتُ رجلٍ عَثرَ به حصانُه، وخذلتهُ على حدّ زعمِه السماءُ والظروف.

المُنعطَف

صرَفَ السائقُ ضخمَ الرأسِ والجثّة بأسنانِه مُرسِلًا نظراتِه النارية في كلِّ اتجاه. ضرَبَ مقودَ الحافلةِ بقبضته وصاح:

- لماذا تأخَّر ذلك الكلب؟

أشفق الركّابُ أن يكسرَ المقودَ فيؤخّرهم إصلاحُه مدّة أطول من تلك التي تأخّرها أحدُ الركّاب بعدَما استأذَنهم بها. كلُّهم تذمّروا من هذا التأخير ولكن ليسَ إلى الحد الذي بلغَ بالسائق ممَّا جعلَهم يشفقونُ على رفيقهم من غضبتِه. شرعَوا يهوّنون الأمر عليه. ضرب أرضية الحافلة بقدميه وجلجل صوتُه يخرس الجميع.

- سمعتموه حين قال عشر دقائق فقط أم لا؟

أجاب رجلٌ حَسَنَ الهندام يناصرُ السائق:

- حقا... قال عشر دقائق فقط.

- وها قد انقضَت دقيقتان أخرى وحضرتُه لم يأت.

ودون أن يلتفت إلى مساعده قال آمرا:

- الق بأمتعته أرضًا ودعنا نذهب.

قبل أن يعترضَ أحدٌ منهم ظهرَ الرجلُ من أقصى الشارع مهرولا وبين يديه مظروف كبير.

هتفوا بصوت واحد:

- مهلا... ها هو قادم.

أرسلَ عينيه باتجاه أصابعهم وهزَّ رأسهم متوعدا. ترك مكانَه خلف المقود. وقف أمام الحافلة مُصالبًا ذراعية على صدره. اشتمّوا رائحةَ شجار سينشب. مدت النسوة أعناقهن من النوافذ. نزلَ الرجال يحسمون الأمرَ بالمعروف.

اقترب الرجلُ من السائقِ فسدَّدَ إليه لكمةً قويّة أطاحت بالمظروف فتناثرَ ما بداخله أرضًا. تخلّص الأطفال من أمهاتهم ونزلوا يلملمون ما تناثر. شاركهم بعض الرجال الجمع تاركين رفيقهم لغضبةَ السائق.

لم يبق من الرجال في الحافلة سوى شاب ناهز الثلاثين، رث الثياب، على وجهه وشعره آثار جير وتراب. راح يرقبُ من مكانه الرجلَ وهو يتلقى اللكمات ككيس من الرمل يتدرب عليه السائق الهائج دون أن يقوى على الرد أو التصدي.

زايلَ مكانَه. اخترق حشدَ الرجال. احتوى الرجل بين ذراعيه مُبعدًا إياه عن قبضةٍ مجنونة فاهتاج السائق أكثر. أمسكَ

بتلابيب الشاب حانقًا. سدَّدَ إليه صفعاتٍ متلاحقة تفاداها بمهارة شدت إليه أنظار الركاب والنساء منهم خاصة.

تسلّلَ الرجلُ المضروب إلى الحافلة تاركًا الشباب في مواجهة السائق وحده. تمكّن الشاب من إمساك يديه وشلّ حركته تماما، وعندها فقط استسلم للرجال فمضوا به حتى أجلسوه خلف المقود.

عاد الشابُّ إلى مكانه بين صفين من عيون النساء المعجبات. ألقَت فتاةٌ يافعة مذياعها الأثير جانبًا واستدارت ناحية الشاب تنصُبُ على رأسِ خيمةَ إعجاب من عينيها الواسعتين. نهض المضروبُ من مكانه وجلس بجانب الشاب خافض الرأس. همس وهو يمسح الدم النازف من فمه وأنفه:

- شكرا لك... لقد أنقذتَ حياتي من براثن هذا الوحش.

نظر إليه دون كلام... عاد الرجل يتلهّى بمسح الدم ومراقبة الصغار وهم يقضمون الحلوى، والنساء وهن يمغضن اللبان.

هدرَ المُحرك عاليًا. مدَّ السائق يده يصلّح من وضع المرآة أمامه. ألقى نظرةً خاطفة على الشاب ثم نقلَها على المضروب. ضغط على شفته وضغط على دوّاسةٍ البنزين فتحركت الحافلة ببطء كأنها مربوطة بحبال.

تقلقلَت عبر الشوارع فطغى هديرها على صوت المذياع في حضن الفتاة. جعلت تُدنيه من صدرها وأذنيها. لفتَت بحركتها الدائبة أنظارَ الركاب..

ظلَّ السائقُ يخصّها بنظرات أخذت تطول حتى لا يجبرُه على الالتفات أمامه إلا منعطفٌ أو سيارةٌ قادمة.

سلكَت الحافلةُ طريقا تحف بها الأشجار. ارتسمت على جرمها ظلالُ الشمس الغاربة. اعترضتها تلةٌ صغيرة. جأرَ المحرك بعنف. تسلقت التلة ببطء سلحفاة عجوز. غابَ صوتُ المذياع تماما. ظهر الامتعاضُ على وجه الفتاة اليافعة. ألصقته بأذنها أكثر. ألصقَ السائقُ عينيه عليها أكثر. بدأت الحافلة تنحدر. خفَّ هديرُ المحرك الذي لاحقته طرقعات العادم.

جَفل الركاب... ظلّ وجه الفتاة مَسرحًا للضيق والانفعال. غرست عينيها بعيني السائق مُتحدّية. داس على الفرامل فجأة. اهتزت الحافلة اهتزازا عنيفا وتوقّفت. اندلق الركاب على بعضهم بعضا. نظرَ المضروبُ إلى الشاب وكذلك فعل الباقون. تشاغلَ عنهم بالنظر إلى قرص الشمس المُنحدر. ظل السائق يُحدّق إلى الفتاة من خلال المرآة. ثم استدار إليها قائلا بلهجة حاسمة:

- أغلقي المذياع.

دارت بعينيها على وجوه كدرة حتى استقرت بهما على الشاب. لم تجد على وجهه المغبر ما ينافي هذا الأمر. أغلقته وتكوّمَت على نفسها محزونة. عاد صوت السائق يهدرُ آمرًا.

ـ لا شك أن صوتك أحلى... غنّي.

تجلّى في عينيها الذعر. عادت تنظر إلى الركّاب ثم إلى الشاب خاصّة فلم تجد أنه يناصرها كما فعَل مع الرجل المضروب. شعرَت أنه لا يريد لها ذلك، ولكنه لن يفعلَ أيضًا شيئًا بالمقابل.

ـ قلتُ لك... غني.

ـ ولكنّي لا أجيد الغناء!

انتفضَ المضروبُ واقفًا في مكانهِ وأشار بسبّابته نحو السائق صارخًا:

ـ احترم نفسَك ودع الفتاة وشأنَها.

أرادَ السائق وقد احتقنَ وجههُ بالغضب أن ينهضَ من مكانِه فتدافع الرجال إليه لاحتواء الموقف؛ بيد أن الفتاةَ شعرَت أنه سيتعرض للضربِ مجددًا بسببها هذه المرة.

ـ أعشقُ الاستماع ولا أحسنُ الغناء.

قالتها بصوتٍ مبحوح وقد نامت في عينيها نظرةُ استسلام وعجز.

- كاذبة... لقد رأيتك تحتضنين المذياع كأنما تضمين عشيقا إلى صدرك.

نظرَت إلى الشاب الذي شعرَت أنه فارَقَ ذاته تمامًا بينما سرَت همهماتٌ بين الركاب أخرسَها بقوله.

- ألم تروها تضمّه كأنه عشيق؟ هيّا غني.

لم تحرّك ساكنًا فأشارَ إلى مُساعده الذي انطلق سريعًا صوب الفتاة، انتزع منها المذياع وعاد به إليه. ضربه بالمقود فتناثر تحت قدميه أشلاء. نهض وقد اكتست ملامحُه صرامةً مرعبة.

عادت نظراتُها تغسلَ كيانَ الشاب الذي تيقّنت أن السائقَ يستفزّه من خلالِها؛ ويحرّضه للدفاعِ عنها كي يدخلَ معه في جولةِ شجارٍ أخرى يظنُّ بأنه قادرٌ على حسمِها لصالحه. ربما شعرَ الشاب بذلك فنأى بنفسِه كي لا يُهزم.

- لن تثنيني دموعُك عما أمرتك به... غني.

يقولُ هذا بينما تجتاحُ الحافلةُ موجةٌ من الهواء البارد. يتطلّع السائقُ والركّاب إلى الخارج. يرونَ بوادرَ غيومٍ تتجمّع في السماء. يتململ الركابُ ضجرا. يقول السائقُ شاملًا الجميع بيديه:

- كلّكم مسؤولون عن هذا التأخير بسكوتِكم عن دفعها إلى الغناء. أراهنُكم على أن صوتَها جميل مثلها.

ثم صاحَ ضاغطًا على نواجذه وقد راح ينقلُ بصرَه بين الشاب والفتاة بشماتةٍ واضحة:

- ستغنين إن قلتِ نعم أو لا.

توجَه البعضُ إلى الفتاةِ يحاولون إقناعها أن الأمرَ لا يحتاجُ إلى كلِّ هذا العناد؛ في الوقت الذي توارى فيه المضروب في مقعده بعدما استقرّت نظرات السائق الصارمة عليه. وإذ استمرت الفتاةُ بالبكاء. وقَفَ الشاب بسرعة وتقدم بثقةٍ من السائق وقالَ ملاطفًا:

- لا بأس.. سأغني أنا بدلا عنها.

رفع إصبعه محذرا.

- لا تحشر أنفك فيما لا يخصك أو يعنيك... ثم إني لا أحب نهيق الحمير.

أربَد وجهُ الشاب. وقفَ أمامَه مباشرة شادًّا قبضته. قال وهو يتخذ هيئة المهاجم:

- لن تغنّي هذه الفتاة وستسوق الحافلة رغما عن أنفك.

ارتسَمَت على ثغرِه ابتسامةٌ رهيبةٌ أعدَمَت كلَّ حركة في الحافلة أو صوت. صرخت الفتاة وهي تترك مكانها لتقف بين الرجلين؛ بعدما شعرَت أن الشاب انتصر لنفسه لا لها فصرخت نكايةً به لا استسلامًا:

- سأغني.. سأغني... نعم أنا أريد أن أغنّي.

سالت ابتسامةُ السائق هناء وسرورا. نظر الشاب إلى الفتاة غير مصدق... رفَعت رأسَها حتى كادَ يصل سقفَ الحافلة وتجاهلَت وجودَه. انسحبَ إلى مكانِه وسرَح ببصره إلى السهول الممرعة على جانبي الطريق يستمع لأغنية حزينة.

سارت الحافلةُ بأقصى سرعة ممكنة تسابقُ الغيومَ المتراكضة في ملعب السماء؛ فتصبغ الأرض بلون داكن مهيب. رياحٌ باردة تمرق من النوافذ بزجاجِها المُحطّم تُدمي الوجوه. حبّات من المطر بحجم غير عادي بدأت تقرعُ الزجاج الأمامي بعنف ونزق.

همس راكب إلى جاره:

- لم يحدث أن أمطَرت في مثل هذا الوقت.

- ولم يحدث أيضًا أن تغنّي فتاةٌ لم يناصرها أحد من أجلِ عيونِ سائقٍ جعلَ من حافلته وكرًا لملذّاته.

التقطَ المضروب هذه الجملة وغمغم في أذن الشاب.

- هذا السائق شؤم علينا.

تغطّى الزجاج بالماء. حاول السائق أن يحرّك الماسحة فاكتشف أنها معطّلة. حرّك بعض الأسلاك بعد أن مدَّ يده من تحت لوحةِ الساعات فلم تُحرك ساكنًا.

ضغطَ على أسنانه. خفّف من السرعة بشكل ملحوظ. كفّت الفتاة عن الغناء الخافت الذي كانت تشدو به بحياء واضح وانتظرت متخوّفة. صارت الطريقُ محاذيةً لواد سحيق يتوالد من قعره ضبابٌ كثيف. باتت الرؤية أقل من مرمى حجر. جاهد المساعدُ بمسح الزجاج من الداخل بخرق بالية. انفتخت قربة من السماء. أفرغَت جوفَها دفعة واحدة.

اضطرَب سيرُ العجلات على أرض زلِقة. وصَلَت الحافلةُ إلى منعطفٍ يطلُّ على أكثر الوادي عُمقًا. ضغطَ السائقُ على الفرامل فجأة. انزلَقَت وانحرفَت باتجاه الوادي. صرخ مذعورًا وحرّك المقودُ بسرعة واضطراب. توقفت بميوعة ودلال أنثى فاتها قطارُ الحبّ والزواج منذ سنوات طويلة؛ ولم تصدق ذلك بعد. حاول عبثا أن يخفي اضطرابه عن عيون الركاب. تسمّرَ شاردَ النظرات. لم يظهر عليه أنه ينوي مواصلة السير. انطلقَت الفتاة تغني بفرحٍ واضحٍ هذه المرة كأنّما لم تعد تشعرُ بوجودٍ أحدٍ في الحافلةٍ سواها..

- الفتاة جُنّت. ألا تخجل من نفسها؟

همسَت بذلك إحداَهن لأخرى لم تكترث لهذا الوصف فهزّت أكتافها غير مكترثةٍ بما قالت.

- ولمَ؟ وهل تخجل المرأة من بناتِ جنسها؟

وشاركَت الفتاةَ الغناءَ بصوتٍ أجمل وأكثر وضوحًا وثقة..

تطامَنت رؤوسُ الرجال وانفصَلَت آذانُهم عن حواسِهم غير أن السائقَ قال لهنَّ باستعطاف:

- يكفي هذا... رجاءً يكفي..

ثم بلهجة أكثر اصفرارًا من سحنته.

- الأرضُ زلِقة والمنعطفُ خَطر. لن نستطيع اجتيازه دون أن نستقرَ في قعرِ هذا الوادي اللعين؛ ثم إن الرؤية معدومة بسبب هذا الضباب ومن الممكن أن تصطدم بنا مركبة من الخلف.

أشار إلى القعرِ الغارقِ بالضباب فامتلأت نفوسُ الركّاب ذُعرًا ورهبةً. أرادوا أن يكونَ حديثُه نوعًا من التهويل لكن ملامَحه أكّدت ما يقوله. تصوّروا بقاءَهم وجهًا لوجه مع البرد القارس والليل الزاحف.

راح الرجالُ ينظرون إلى بعضهم بعضا بعيون فيها الكثير من العجز... النساء شرعن يبكين. الفتاة انشغلت بالبحث عن مذياعها ولما تذكّرت ما حدث له انخرَطَت في بكاء مر.

تكوّمَ السائقُ على المقعد بلا حراك. جثا المساعد عند قدميه. همَّ أن يطلب من الجميع مغادرة الحافلة غير أنه لم يجد ملتجأً قد يحتمون به من شلال السماء الهادر.

خيّمَ على الحافلة صمتٌ رهيب لم تكسره إلا حركةٌ في المقعد الأخير. أدارَ كلٌّ منهم رأسه إلى الشاب. رآوه ينهضُ فاركًا يديه بمرح وعلى وجهه تفاؤل افتقدوه من أول الرحلة. يتوجهُ إلى السائق. يربت على ظهره برفق. ينظر هذا إليه بوجل.

- لن نظلَّ بين فكي البرد والمطر ومعنا كما ترى من أطفال ونساء، ومن الممكن أن نتعرضَ بأي لحظةٍ لاصطدام ما من سائقٍ متهور.

قلّب يديه حيرة وعجزا. زاد ارتجافه. أوضح الشاب.

- لا عليك... أنا من سيقودُ الحافلة.

رشقَه بنظرة احتقار وقال ماطّا شفتيه:

- أنت!

قلقلَ رأسه مُمانعا. أمسكَه الشابُ من ياقته وحملَه بعيدا عن المقود. جلسَ مكانَه. أدار المحرك. هدرَ هديرا وحشيّا. قفز السائق أرضا. حذا المساعد حذوه. حدث هرجٌ بين الركاب. تركوا أماكنهم ينوون النزول. صرخ فيهم الشاب:

- لن يغادر أحدٌ مقعده.

ثم أوضح برفق.

- لا مبررَ أبدا لهذا الخوف.

والتفتَ إلى المُساعد ملاطفًا.

- التقطْ بعضَ الحجارة والأغصان. انثرها تحتَ العجلات على طول الطريق حول المنعطف.

ثم إلى السائق.

- وأنتَ فلتجلس في المقدمة وتمسح الزجاج.

واستدارَ إلى الرجل المضروب.

- اجمع الملابس من الركّاب وألقِها على الطريق فوقَ ما ينثرهُ المساعد أمامَ الحافلة.

تشبَّثَ كلٌّ منهم بملابسه فقالَ مُحذّرا:

- اختاروا بين البقاء تحتَ رحمة هذا الطقس والخطر وبين أن يلحقَ بها بعض الوحل أو التلف.

تراخَت الأيدي صاغرة. ظلّت الأنفاس مُعلّقة بخيطٍ واهن من الرجاء. ضغط الشابُ على دواسةِ البنزين برفق. سارت الحافلة الهوينا من جانبِ الطريق ثم راح يشاغلُ الفرامل بلمساتٍ خفيفة من قدمه. راحت بدورها تهتز اهتزازات لينة؛ حتى إذا اجتازت المنعطف أطلق الركابُ صيحاتِ الفرح واندفعوا إلى الشاب يقبّلونه ويربتون عليه. أوقفَ الحافلة. تركَ المقودَ للسائق. ندّت عنهم أصوات غيظ واحتجاج:

- لا تتخلَ عن القيادة.

- هذا السائق لا يجدي نفعًا، ولا يصلحُ لشيء.

- نريدك للحافلة باستمرار.

رفعَ يديه فسكتَ الجميع. قال بتواضعٍ جَم وقد حاولَ تجنّب نظراتِ الفتاة التي خلَت بالكامل من الامتنان الذي تراقص في عيون الآخرين:

- حللت أزمة ولم أكن طامعًا في مركز أو جاه ولا حتى مقعد.

مضى إلى مكانه في مؤخرة الحافلة؛ تحيط بها عبارات الثناء التي ساطت السائق في مكانهِ بعد أن جلسَ مُتهدّلَ الملامح. نظر إلى حطام المذياع بخجل ثم سار بالحافلة وعيناه على الطريق أمامَه لم يرفعهما أبدا إلى المرآة.

استدارت الفتاةُ فجأةً وحدّقت بالشاب الذي أراد الابتسام بيد أنه هربَ بوجهه إلى النافذة؛ بعد أن ابتسمت الفتاة ابتسامةً تشبه كلَّ شيء إلا الابتسامة التي تعوّدَ أن يراها في وجوه الفتيات. ارتسمت أبتسامةٌ أخرى على وجهِ الرجل المضروب الذي أومأ لها برأسهِ فور أن تلاقت نظراتهما على عجَل؛ قبل أن ينهضا من مقعديهما معًا ويصرخان بالسائق بصوتٍ يتفجّرُ غضبًا يفوق غضبَ الطبيعة من حولهما كمَن تذكَّرا شيئا كانا قد أجّلاه إلى حين تجاوز منعطفٍ ما في أعماقهما:

- توقف...

شرُّ البليّة

توجَّه إلى الباب تسبقُه معدتُه. ضرباتُ الجوع أقوى من الطرقِ على الباب وأعنف. «لا بد أنه ابنه الذي خرج منذ أكثر من ساعتين لشراء الخبز. سيؤجّل عقابَه إلى حين يُخرِس هذه المعدة الكافرة وبعدها يفرك أذنَه حتى يقطر منها الدم».

فركَ يديه ارتياحا وسحبَ المزلاج. ترنّحَ الباب. أوشك أن يسقطُ بين يديه. هم أن يصرخ بابنه: "أين الخبز". رأى عنقَه في قبضةِ رجل غارقٍ من رأسه وحتى قدميه ببدلة حالكة السواد. لم يشك للحظةٍ أن من يقبض على ابنه بهذه الصورة ويسدَّ الفراغَ شرطيّ من لحمٍ ودم؛ وإن كان جامدًا لا يَطرفُ له جفن.

- تفضل.

خرجَت من فمه ورقةً صفراءَ ذابلةً أدركَها الخريف. ضغطَ الشرطيُّ على عنق الصبي ضغطةً تلوّى بها وصاح. قال وهو يلكزُ صدرَ الأبَ بعصا استلّها من تحت إبطه:

- أهذا الوغد أبوك؟

يحاولُ الصبي أن يهزّ رأسه إيجابا. تمنعُه اليد الضاغطة عليه. يحس الأب بالأصابع تعتصر قلبه. يبسط يديه ضارعا:

- ماذا فعل يا سيدي؟

سدَّدَ إليه نظرةً لملمت ذنوبَ الأرض وألقتها على رأسه دفعةً واحدة.

- بل أنت الذي فعلتَ وفعلتَ وفعلت.

ضمَّ يدَيه إلى صدره بلا إرادة يتقي بهما شرًّا أحس أنه لا محالة واقع به. بعثرَ ذاكرتَه علّه يعثر فيها على رائحة ما ساقت أنف هذا الشرطي إليه فلم يجد. ألفى ذاتَه شخصًا مُسالمًا، كلُّ عالمه ينحصرُ على الطريق الفاصل ما بين المدرسة والبيت. أما اللسان الذي يسوقُ عادةً صاحبَه إلى السجن أو المقبرة؛ فقد ألقى عليه القبضَ منذ زمنٍ وأثقلَه بالأصفاد؛ حاكِمًا عليه بالسجن المؤبد بين جدران فمه.

منذ أمد طويل لم يخض في أحاديث السياسة وانتشارِ الجوع وتفشّي الأوبئة؛ وكذلك احتلالِ الجهل كلَّ شبرٍ في هذه المدينة. لقد سدَّ السبلُ في وجه أي تهمةٍ توجَّهُ إليه.

يقولُ بفرحٍ طفوليّ:

- لعلَّك يا سيدي أخطأتَ القصد، فما أنا إلا رجلٌ مسالم.

ألقى نظرة معجبة على صدره المطرز بالأوسمة تحوَّلت إلى نظرةِ زهوٍ وغضب.

- نحن لا نخطئ؛ ثم لا تكثر من الكلام... أليس هذا ابنك؟

أنشبَ أظافرَه في عنق الصبي فأطلقَ صيحة نفذَت في قلبه سكينًا مُرهفة. أرخى جفنيه بمعنى نعم. فدفَعَ الصبيَّ إلى الداخل كمن يقذف من يدهِ كيسَ قمامة.

- كان يشتري خبزًا يكفي لطابور خامس.

استعادَ في ذاكرته نصوصَ البلاغاتِ اليومية إن كان فيها ما يناقضُ شراءَ الخبز، ولمَّا لم يجد قال موضحا بفرح:

- نحن أكثر من عشرة والخبزُ طعامُنا الوحيد.

ربتَ الشرطي على وجههِ بغلظة وصاح صيحة الظفر.

- ها أنت قلتها بفمك... عشرة وربما أكثر في مكان واحد.

كلامُ الشرطي يسرقُ منه الوعيَ والمنطق. بات لا يعي متى يكون على صوابٍ أو خطأ. يحاولُ أن يتذكر إن كان هذا يتعارض مع البلاغات المُرقَّمة. عينا الشرطي تنحرانِ حتى حقَّه الطبيعي في التذكر. تصلبانه على شجرة منفردة وسط صحراء لا ماءَ فيها أو هواء.

تهرولُ إليه زوجُه والأولاد. يقفُ الكلُّ بلا حراك. تنقلُ الزوجةُ عينيها بين الشرطي وبينه؛ فيسارع بقنصِ طائرِ الشك في عينيها الحائرتين.

- أنا رجلٌ مشهود لي بحسن السيرة والسلوك. صفحتي عندكم أنصعُ من ثلوج القطب الشمالي.

حرّك الشرطي رأسَه ضجرا.

- شمالي، جنوبي، لا يشبعُني ولا يرويني هذا الكلام.

أمسكَ به من ياقته وجرَّه إلى الخارج جرًّا. استدار إلى زوجه وهو ذاهب يطمئنها.

- لم أفعل شيئا يا خديجة... لا تقلقي.

لمحَ على وجهها لومًا وتكذيبًا. أما عيناها فكانتا تقبضان على تلك النظرة الحائرة تتردد فيهما وهي تذكّره بمصير الأولاد؛ إن حاولَ يومًا لسبب ما أن يرفعَ رأسه أو يطلقَ سراحَ لسانه. كلماتُها اليومية ما تزال ترنُّ في أذنيه.

- مَن يحاولُ الوقوفَ في وجه قطار سائرٍ يغدو سكَّةَ حديد... حذار!

«متى يعودُ ليثبتَ لها أنّه لم يخدعها، وأنه أكثر حرصا منها على الأولاد حتى يكبروا ويفهموا الحياة. إنه بريء وما هي إلا دقائق معدودة يعودُ ليطوي أولادَه تحت جناحيه، يقبّلهم ويقسمُ لهم أنه لم يحكم على نفسه بالجمود والصمت؛ على النقيض من رغباتِه وطباعِه إلا من أجلهم».

دفعَه الشرطي دفعةً أيقظته من أحلامه. ظلَّ يركضُ بفعل الدفعة حتى توقف مرغمًا أمام مكتب فخم مُغطّى بزجاج لماع. ضرب الشرطي بقدميه الأرض كمن يدقُّ مسمارًا بنعلِه في خشبات لا تفترشُها.

- ها هو المجرم يا سيدي.

انتزع وجهَه المتعبَ عن سطح الزجاج. قابلته عينان كانتا تتربصان به. تراجعَ الضابطُ حتى التصق بالجدار. عيناه غيمتان مكسوَّتان بالجليدِ في وجهٍ صارم الملامح. شعر أنه بات محاصرًا داخلَ شبكة مُحكمة النسيج. يلمحُ مقعدا إلى جواره. يحاول أن يتهالك عليه. ينتهره الشرطي بعنف. يدرك أن الأمورَ لن تسير في صالحه البتة.

معدتُه الخاوية تسدُّ تجويفَ البطن والحلق. تهجم عليه رغبة أن يتقيأ أمعاءه ويتبخَّرَ في سماء هذه الحجرة شديدة الحرارة. يسمع الشرطي يقول بلهجة تتوغل في أعصابه كالمنشار:

- أتعبني يا سيدي حتى أتيت به.

صوّب الضابطُ إلى الشرطي نظرةَ تقريع ذابت استصغارا حين نقلها إليه. ثم باستهانة:

- هذا الفأر يتعبك؟

ثم زعقَ به.

- اغرب عن وجهي.

تسلل من الباب كقطٍّ مبتور الذيل. عاد الضابط يحكمُ من حوله الخيوط. يقول من زاوية فمه مع بداية ضحكة تبدو بلا نهاية:

- أتعبتَه! هه!

بسط يديه ضارعا.

- أقسمُ.....

- إخرس واترك قسمَكَ جانبا.

- يتناول سيجارا من علبة مُذهّبة. يغرسه بين أسنانه. ألفى الفرصة مواتية كيما يقوم بعملٍ نافع يمتص به شيئا من غضبةِ الضابط. نَشطَ بالبحث عن ولاعة أو كبريت على المكتب فلم يجد. ندِمَ على تركه التدخين وإلّا لأمكنه القيام بما ينفع في موقف حرج كهذا.

- ماذا تشتغل؟

- مدرسًا... مدرسًا للتاريخ والجغرافيا في مدرسة.....

رفع الضابط يده يخرسه.

- كفى... إذن فأنت تحسن القراءة؟

تحيّر إن كان الجوابُ بنعم سيفيده أم أن لا هي الجواب النموذجي.

تخيَّلَ أن هناك ابتسامةً تنمو تحت جلد هذا الوجه الجامد. اندفع بلا وعي يُطري ولعَه بالمطالعة. أمرَه أن يصمت.

- ثرثار... هذا يثبتُ التزامك بأصول المهنة.

أدرك بحدسه أن هذا الكلام يحمل معاني غامضة قد تجلبُ له الضرر. قال بمرحٍ لا يناسبُ الموقف:

- وشرفك في حدود سِيَرِ العظماء والبحار والأنهار والتضاريس ووسائل...

ضرب الأرضَ بقدمه يسكته. اختلَّ توازنُ الكرسي من تحته. سقط السيجار من فمه. أمطرَه سيلًا من الشتائم. قال يعتصر الكلمات:

- أريد فقط معرفة إن كنت تقرأ بلاغاتنا. فهي فقط ما يستحق القراءة والسَماع.

قال باندفاع وحرارة:

- أقرأها وأسمعها وأحفظُها عن ظهر قلب.

- كذّاب.

اخترقت أذنيه رصاصةٌ محكمة التسديد. يتفتَّتُ ويذوب. يفقدُ إحساسه الراهن بالأشياء. ما عاد يهمه شيء الآن إلا أن يعرفَ التهمة التي أُلصقت به.

مطَّ الضابط شفتيه وهو يتناول سيجارا آخر ممعنا إليه النظر:

- كم ابنا لديك؟

سرَّه أن ينتقلَ الحديث إلى نطاق الأسرة. فهو لا شك سيرحمه حين يعلم بعددِ الأفواه التي تنتظر عودتَه لها بالخبز.

- ثمانية. أكبرهم دون العاشرة.

- وزوجك وأنت... كم يكون العدد؟

- عشرة.

- ها أنت تعرف في الحساب كما تعرف التاريخ.

لم يكن في لهجته المسنونةِ بالسخرية ما يغريه أن يتمادى بالتفاؤل. رآه يستريحُ في مقعده ناظرا إلى الدخان المتصاعد حلقاتٍ رعناء.

- والعدد المسموح به للتجمع في بلاغاتنا كم شخصا؟

«سيكون الأمر في منتهى الغرابة والإذلال أن تُعاقب على إنجابك هذا العدد من الأولاد؛ وقد ظننت أنْ سيحكم لك من أجلهم بالبراءة».

أعاد السؤالَ بصبر نافد.

- كم شخصا قلت لك؟

همس بصوت مذبوح:

- خمسة.

أفرغ الضابط ضحكةً ظلَّ يختزنها أمدا طويلا. اتسعت عيناه ذعرا ورهبة. «كان الأمر في غاية البساطة حين اختزلوا عدد المدرسين إلى ما دون الخمسة، أما الأولاد فكيف لأب أن يحذفهم من أبوّته لهم». يبقى لديه أملٌ بحجم الصرصار أن الأمور لن تصل إلى هذا الحد، وأن التهمة ركبته لشيء جدًّا بعيد عن الأسرة والأولاد.

- أقسم بالله العظيم أنني...

رفع الضابط يده محذرا.

- لا تُكمل...

- أنت يا سيدي تحرمُني من الشاهد الوحيد هنا على براءتي.

رماه بنظرةِ استصغار وقال من بين أسنانه:

- العدلُ هو الشاهد. أنتم عشرة أشخاص في مكان واحد. خمسة كما ترى زيادة عن العدد المسموح به للتجمّع.

اختلط عليه الأمر فما عاد يعرف إن كان عليه أن يضحك أم يبكي. يفقدُ ثانيةً إحساسه الراهن بالأشياء. يتحول إلى منطادٍ ثُقِبَ في الجو. يهوي من علوٍّ شاهق. الخوفُ ينتصب على رأسه مظلّة تدفع عنه رياح الطمأنينة والثبات. تلتقي عيناه بعيني الضابط. يرى في كل منهما صنارةً وهو مُعلّق فيها كالطُعم. يتزاحم الكلام على لسانه. «ماذا عساك تقول؟».

يتوصّل إلى قناعة أن الصمت أبلغ في الموقف من الكلام. «أما الضحك فطلقةُ الرحمة للمصابين مثلكَ بالرزايا والشرور». يشرعُ بالضحك الهستيري. يزمجرُ الضابط ويركبه السعار. يستمرُّ بالضحك. يضغطُ على زر أمامه. يصلصلُ جرسٌ في الخارج. يندفع الشرطي إلى داخل الحجرة. يضرب بقدمه الأرض. يشير الضابط بإصبعه كأنما يطرد ذبابة.

تقبِضُ على ذراعه يدٌ من الفولاذ. تجرّه خارجا. يعبر ممرًّا يتناقص نورُه كلما أوغل فيه. يفقد الرؤية تماما.

تتولى أذناه التقاط دبيبِ الأرجل في الظلمة. يسمعُ صريرَ مفتاح وقفل وجأرة بابٍ يفتح. تدفعه يد من الخلف. يسقط فوق كُتلٍ من لحم وعظم. تتلقاه ضحكات أبعد ما تكون عن السرور. تتعود عيناه على الظلمة بالتدريج. يرى من حولِه رهطًا من الرجال.

ينقل يدَه عليهم. يعدّهم. ألفاهم تسعة داخل زنزانة في حجم بيضة الأفعى. يبحث بعينيه عن الشرطي ليخبره أن العدد أكثر بكثير مما تسمحُ به البلاغات. تصطدم عيناه بالباب المغلق. ينسى كل شيء عدا أنه وسط أفواهٍ تطلق ضحكاتٍ أبعد ما تكون عن السرور. يشارك الرجالَ الضحكَ فيما يشرعُ بحلِّ أصفاد لسانه عقدة عقدة.

الرأيُ السَدِيد

بعد جولةٍ في أنحاء القرية النموذجية؛ وقفَ متعهدُ البناء وإلى جانبه المهندس. خَطَب في أصحاب الفيلات الأنيقة وأزواجهم:

- كما رأيتُم أيها السيدات والسادة، لم أغشكم، ولم أضع في جيبي قرشًا واحدا زيادةً على الربح الحلال. الفيلات كما رأيتم توائمُ متطابقة. الحجارةُ الحمراء من إيطاليا، البلاط من فرنسا، والخاماتُ الأخرى أوصيت عليها من بلدان تكتبُ بفخرٍ أسماءها بالحروف اللاتينية... باختصار تجدون في كلِّ فيلا شقراء سحرٌ ما مِن كلِّ بلدٍ متحضر.

وكما سبق إذ قلت لكم، لم أغشكم، وأراه من واجبي _ حتى أبرئ ذمتي_ أن أخبركم بأن ماء البناء فقط جلبته من المدينة المجاورة. وقد أخبرتكم بذلك في حينه فلم يعترض أي منكم وإلا لكنت أوصيت عليه من نهر السين. بالمناسبة؛ لا تصدِّقوا ما يشاعُ جهلًا أن المجاري التي تصبُّ فيه تلوثه. وحتى لو صَدقَت الشائعاتُ فإن هذا من شأنه أن يزيد من تماسك الإسمنت التركي.

على أي حال لقد كنتُ في غاية الحرص حين مزجت الماءَ بالمطهرات خشيةَ الأوبئة والجراثيم «وهنا صفَّقَوا له». أشكركم... أشكركم، وأتركُ الكلام الآن لزميلي المهندس ليخبركم عن الشكل بعدما أسهبتُ بالحديث عن المضمون.

تنحنح المهندس ونظف أنفه بمنديل غاب لونه الأبيض.

- الواقع أن حضرةَ المتعهد قد قالَ فأثرى المقال. وإن كان هناك من شيء أضيفه فأقول إن الفيلات كلها على مستوى واحد من المساحة والارتفاع. الشمسُ تنزل في ضيافتها طيلة النهار؛ وكذا الهواء يدخلُها عاريا حاسرَ الرأس خالعَ الإزار. أما الملعبُ فيتسع لكل أطفالكم أو للكبار إن سمحَ وقتهم بممارسةِ ألعابهم.. كذا لمَ أنس صالات الرقص والمرح، بينما رأيتُ أن صيدليةً واحدة يتيمةً تكفي الجميع.

وهنا تدخل المتعهد باسما.

- موقع القريةِ الفريدِ والصحبة الأبدية بينها وبين الشمس لن يعرّضاها لأي أذى أو مرض خطير.

- والخَدَم... أنسيتَ أنهم مصدرٌ غنيٌّ لأسباب المرض؟

قالتها سيدة كانت مشغولة طيلة الوقت بقضم أظافرها.

هرشَ المتعهدُ رأسه والتفت إلى المهندس مستوضحا فقال هذا على الفور:

- لقد حسبت لكلِّ أمر حسابه. الآلة ستصنع كلَّ شيء تقريبا، والعدد القليل الذي يلزمكم من الخدم سنضعه في الحجر الصحي مدة كافية قبلَ إلحاقهم بالعمل. لن يستعملوا أيديهم إطلاقا إلا وهي في القفازات.

- ألَا يتنفَسون؟ زفيرُهم قد ينقل إلينا المرض.

سألت إحدى السيدات الغارقة حتى أذنيها بالفراء.

- سأستشيرُ في هذا الطبيب.

تدخَّل المهندس مُعقّبًا على كلام المتعهد.

- أنا متأكد من أنه سيوصي بأن يضع كلُّ خادم على فمه وأنفه قناعا واقيا لهذا الغرض.

حدث هرجٌ بين الحاضرين. فقال المتعهد من شدقه:

- كما ترون، لم نترك شاردة أو واردة إلا أحصايناها عددا.

نهض رجلٌ جاهَد قبل الاحتفال بإخفاء صلعه. طلبَ منهم السكوت ثم أشارَ إلى قرية قريبةٍ بُنِيت بالقش والطين.

- وتلك؟ أليست مزرعةً للأوبئة تحصُدنا قبل أن ينبت الزهر في الحدائق؟

قدَّمَ وجهه للحاضرين يُلصِقون عليه نظرات الامتنان والشكر لهذا الإنذار المبكر.

قالت سيدةٌ ذات شعر صناعي أحمر ببساطة:

- نأمرُ بهدمها.

قبل أن تومئَ الرؤوس بالرضى، وقفت سيدة أخرى كاسية عارية. شدَّت بقوامها الرائع أنظارَ الرجال.

- بل نُبقِي عليها.

حاصرتها نظراتُ الاستنكار من بقية النسوة. أطلقنَ عليها ألسنتهن آمراتٍ إيّاها بالصمت والجلوس. أما الرجال فقد انشغلوا بنهبِ ما استطاعوا من فتنتها؛ فلم يستوعبوا أبعادَ كلامها أثناء انشغالِهم باستيعاب أبعادها الجسدية. أخذت تهزّ رأسَها لغباء النسوة قبل أن تقول من أنفها:

- أيتها السيدات، إنْ نحنُ أمِنَّا شرَّ الأوبئة فلن نأمن الحوادث الطارئة والمفاجآت.

طغت همهماتُ الاستحسانِ من قبل الرجال. تسلَّقتها عيونُهم بادئةً بساقيها الملفوفتين. تكلّمت بثقة واعتداد واضحين:

- قد يحتاج أحدُنا إلى عملية جراحية، وهذه بالتأكيد تحتاج إلى دم.

فرضَت الصمتَ والسكون على النساء بحديثها.

- من أينَ نأتي بالدم النازفِ إن لم يكن من أجسادِ هؤلاء؟

- صحيح... من أين سنأتي بالدم؟

تساءلَ الرجلُ الأصلع مُؤمِّنًا على كلامها. سقطَ السؤال في الحلوقِ فأخرسَها. توجَّهت الأنظارُ إلى المهندس والمتعهد متهمة إيّاهما بالتقصير. جعلَ كلٌّ منهما يلقي باللائمة على صاحبه...

أنقَذَتهُما ذاتُ القوام الرائع بقولها ببساطة وهدوء:

- أنا أقول لكم... نحيطُ تلك القرية بسياجٍ عال نمنع من خلالِه أهلَها من الخروج.

- هذا عينُ العقل.

تطوَّع بالثناء رجلٌ أكلَ الشيبُ رأسه فضربته امرأةٌ شابة التصَقت به بكوعها على خاصرته. لمحَتها ذات القوام الرائع فابتسمت معجبة بنفسها.

- إلى هنا ويبقى الحلُّ ناقصًا. ما قصدتُه بالضبط أن نعتني بأهلها. أن نقدمَ لهم الغذاء والكساء وأنواع الدواء.

برزَت أصواتُ الاحتجاج من الرجال هذه المرة فاستطردت موضحة.

- لن يكلّفنا الأمر أكثر مما ننفقه على الكلاب... فهل ستكون هناك فيلا بلا كلاب؟

ضحكوا طويلًا من سذاجة السؤال. قالوا بصوت واحد:

- بالطبع لا.

قالت الغارقةُ حتى أذنيها بالفراء محتجّة:

- ولكن الكلاب تختلف... قطعا تختلف.

أردفَت سيدةٌ بصوت فيه الكثير من الأنوثة المذبوحة:

- أتخلى عن زوجي ولا أتخلى عن كلبي.

تذرّعت ذات القوام الرائع بالصبر حتى انتهين من الكلام.

قالت بلهجة تقريرية بحتة:

- لكن الكلاب رغم قيمتها ووفائها النادرِ لا يمكن لها أن تمنحنَا دماءها... إذن علينَا أن نقومَ بتربية أهل القرية تلك كما نربي الكلاب؛ إن أردنا دماءً سليمةً تصلحُ للسيرِ في طرقاتِ عروقنا؛ هذا إن لم نتحجْ للطرقاتِ ذاتها يومًا. هل أنا مخطئة؟

تعالت الأصوات.

- منطق ووعي.

- لا غبارَ عليه.

- كلامٌ لا يأتيه الباطلُ ولا يشوبُه السهو.

التحمَت عليها العيونُ في نظرات باردة دبَّ فيها السعار. تلاقَت الأكفُّ بتصفيق حادٍّ متصل. وثَبَ رجلٌ ناحية المرأة وقبَّلها بامتنان. كانت هذه إشارة لالتحام كل رجل بامرأة.

امتلأت القاعةُ بطقطقة الشفاه. وقفَ المهندس والمتعهد ينظران إلى بعضهما بعضا ولما فَطِنا إلى أن مكانهما ليس في المقدمة؛ وثبا إلى الأمام يركلان الرجال المطبقين على المرأة ذات القوام الرائع. وطفقا يبحثان عن شفتيها اللتين باحتا بهذا الرأي السديد.

الفرَحُ المنسي

التفَتَ إلى الوراء ويده ما تزالُ على مقبض الركوة. ألفى سيدتَه مُستندة بجذعها إلى باب المطبخ وذراعاها أمامَ صدرها النافر. لمح على وجهها همّا دفينا فسَّرته حين قالت:

- كما توقعتُ أن يفعل.

تساءل وعيناه إلى الأرض:

- هل اعتذر؟!

هزّت رأسَها وغمغت بلعناتٍ مبهمة. قال في سرة: "هذا أفضل". تركَت الباب وخطَت إلى الداخل يسبقُها عطرُها المميز. اجتاحَه ارتياحٌ مبهم لشعوره أنها قريبة منه، وعطرها يقتحم أنفَه بلا استئذان.

مطَّت شفتيها قائلة بقرف:

- أتظنني أرتاح لرفقته؟ فقط أشفقُ على نفسي من شماتة النسوة بعدَ أن جعلت كلُّ واحدةٍ منهن زوجَها تحت إبطها.

أسبلَ جفنيه على نظرة خجلى وراح يرقبُ الماء الفائر، يتصاعدُ منه بخارٌ عابقٌ برائحة القرفة. شعرَ باقترابها منه أكثر..

طغى عبيرُها على كلِّ رائحة أخرى. تخيّل شفتها السفلى وهي غافية في دَعَةٍ وأمان. جاهَدَ في طردِ خواطرَ غريبةٍ اقتحمَت رأسه.

قالت وصدرُها يكادُ يلامسُ مرفقَه:

- لطالما رغبتُ بالوقوف على سرِّ إتقانك صنع القرفة بالجوز.

وحسِب أنها أدخلت إلى صوتها الرتيب نغمةً جديدة حين استطردت.

- أتراك تبوحُ بالسر؟

أعلنَ قلبُه عن ذاته بخفقات مفاجئة سريعة. خطف إلى وجهها نظرة عجلى ثم عاد يرقب الماء الفائر وهو يلعن سيده. «ذلك الكلب يترك هذا الكنز من الجمال الدافق ويلهث جريًا وراء الساقطات... دائما ينعتُك بكلب... لا تذكرُ أنه ناداك ولو مرة باسمك المجرد... دائما يقول إنك تضيف لجمعِ الكلابِ بوجودك واحدًا... الخنزير». يغرقُ في بحر من الخواطر يوقظُه منها نشيشُ البخار والماءُ المدلوق على النار.

رنّت ضحكتها رنينَ دراهم فضيّة في يد طفل يتيم فتجلّى على وجهها الانبساط.

- حسدتك؟!

رشقَته بنظرةٍ قبل أن تتطوّع بتجفيف ما اندلق على سطح المنضدة.

- أتساءلُ إن كانت لديك مواهب أخرى يمكن أن تُحسد عليها.

«الموهبةُ الوحيدة التي كنتَ تتقنُها ويحسدُك عليها صبيانُ الحارة ونساؤها هي تلك القدرة الهائلةُ على احتمال اللّكمات والرفسات من زوجِ أُمّك؛ تحت سمع وبصر هذي الأم التي كانت تبتسم وهي تَراك تُضرب؛ ثم تدفعك إلى الخارج بحجة إنقاذك من براثن زوجها الوحش... تُغلق البابَ من دونك لتظلَّ وزوجها في الداخل يضحكان... ماذا لو حدَّثتَ هذه السيدة عن تلك الموهبة القديمة الجديدة باحتمال الذل والهوان؟!».

تحوَّلَت السيدةُ عنه إلى الباب قائلة بلهجة غاضبة:

- ليس منك نفعٌ غير الشرود. اسكب لي ما تبقى وأخرِج السيارةَ من المرآب.

جلَست في المقعد الخلفي صامتة بوجهٍ يفترشه طيلة الطريق الحزن. فتّش عن كلمة مناسبة يقولها فلم يجد، ولمّا وجدَ لم يطاوعه لسانه فصمَت.

توقّف وسط رتلٍ من السيارات توافدَ أصحابُها كسيّدتِه بغيةَ تهنئةِ سيدةِ هذا القصر الغارق في لجّةٍ من أقواس قزح بعيد مولدها. ترَكَ مكانَه خلف المقود. فتح لها الباب. استرق إلى وجهها نظرةً خاطفة. رأى عليهِ الحزن يفقس ويبيض وتطيرُ فراخُه لتحطَّ على أغصانِ روحِه.

- ادخل إن شئت.

لم تستدر حين قالت ذلك لكنّه هز رأسه بالنفي. رشقته بنظرة جانبية وهي آخذة بصعود الدرج الطويل العريض. ظلّ مكانه يقضم أظافره. يستمع إلى موسيقا ناعمة تلاعبُ نسائم الليل فطارت لها من رأسه ألفُ فكرة وفكرة. حاول أن يتذكر يوم مولده فلم يعثر عليه.

«ليست هذه أول مرة تحاولُ فيها العثورَ على ذلك اليوم البغيض. سيدتُك وسيدةُ هذا القصر وكلُّ أصحاب هذه السيارات الفارهة يحيطون علمًا بتواريخَ أيامِ مولدِهم يعرفونها ويحتفلون بها؛ إلاكَ أنتَ حينَ تبدو ضائعًا على الدوام كقط طريد أجرب... أكثر من مناسبة تجعلكُ تحس بالنقص...

لستَ تدري ما الذي سينتابك لو عرفتَ بطريق الصدفة ذلك اليوم الذي تحنُّ إليه حنينًا موجعا... أراهنُ لن تبارحك التعاسة... ستظلُّ خادمًا وسيظلُّ ذلك الخنزير ينعتك بالكلب... مهما يكن من أمر فأنت تشتاق لمعرفة ذلك اليوم الذي لفظَتك فيه تلك المرأة التي كانت تغلقُ من دونك الباب وهي تضحك ملءَ شدقيها».

بدأت نسائمُ الليل تتعرّى وتطرح دفئها وحنانها. جلس داخل السيارة. أغلقَ الباب فشعر بالاختناق. عاد وفتحه. مرقَت إلى أذنيه موسيقا صاخبة. تخيّل الأجساد وهي تتلوى، تلتصق وتتباعد مطفئةً شهوة الوصال بحمى الرقص....

رأى سيدتَه بجسدها الفتّان تتثنى ملقيةً ذراعيها من حول عنقهِ النافر؛ وصدرها يضغط صدرَه بلا رحمةٍ؛ بينما أنفاسُها تطوف على وجهه الملتهب. شرب عن وجهها كؤوس الحزن والفرح. تغلي في عروقه الدماء. يحلُّ ربطة عنقه. ينتبه إلى أنه ما زال داخل السيارة. يهز رأسه بأسف.

«ستظل تترنحُ ورقةً أدركها الخريف. تحملك الدنيا على أجنحة الوهم ولا تلقيك إلا في العراء».

أخذت جموع المهنّئين تغادرُ القصر تسبقها ضحكاتٌ نشوى مخمورة. أرسل عينيه بحثا عن سيدته. استوطنَه شوقٌ عارم.

«لو تظهر بقوامِها الرائع». تلحُّ عليه رغبة قتالة باقتحام القصر ودعوتها حالا للرجوع. يراها تنزلُ الدرجات بخطى وئيدة متزنة بما يشي أنها لم تسكر... لم يدرِ أيفرح لصحوها أم يحزن! خفّ لملاقاتها فاستقبلَه عن بعد عطرُها المميز. صارعَ رغبتَه باحتضانها وحملِها إلى حيث يضعها بجانبه. لمح على وجهها نجوم سعادة عكستها الأنوار. قال وهو يفتح لها الباب الخلفي:

- آمل أن تكوني قد قضيت وقتًا ممتعا.

- نوعا ما.

قالتها باقتضاب. نظرَ إليها عبر المرآة. ألفَاها تصلحُ من وضعِ خصلةٍ نافرة على جبينها الناصع. تنحنح قائلا:

- أنت السيدة الوحيدة التي رأيتها بمفردها الليلة.

زفرَت مغتاظة ثم قالت ساخرة:

- قلبُك علي؟!

تشاغل بالنظر إلى الليل الهاجم على الأفق البعيد. سمعها تقول بلهجة محايدة:

- أتراه عاد إلى البيت؟

حدّق إليها عبر المرآة وقال ضاغطًا على الحروف:

- إن عادَ أو لم يعد فلن تظلّي وحيدةً الليلة.

زفَرَت وفي عينيها نظرةٌ اندهاش فأردَف قبل أن تطير.

- هكذا قررتُ.

شهقَت مستنكرة فألصق عينيه بعينيها وتابع:

- لم أخبرك أن لدي مواهبَ أخرى غير صنع القرفة بالجوز ومهارات القِيادة؛ والأهم من كل هذا غير ما يظن زوجك الخنزير أني كلب.

أشاحت بوجهها وراحت تنظر عبر النافذة إلى اضواء الشارع. رأى على وجهها ارتياحًا كذاك الذي كان لحظة اندلق الماء الفائر على النار. ضغطَ على البنزين فجأةً فيما راح يحفر في رأسه ذكرى هذه الليلة؛ التي رآها تصلح أن يتذكرها كلما أجهده البحث عن يوم مولده.

غربةُ الحياة

تلفَّتَت حولَها عالمَةً أن ليس هناك من باب آخر للخروج من فناء الجامعة. «إذن ستشهدينَ تلك السيارةَ البيضاء اليوم أيضًا كي توجعَك... لم ينفعْكِ التأخّر عمًدا علَّ زميلتُك تتركك وتذهب».

ترَاها واقفةً بجانب السيارة جلّادا لا يعرف الرحمة. «سيطرق سمعَك عما قليل ذاك الحديثُ المكرر عن الحفلات والرقص والسهر... ستعودين إلى البيت مشتَّتةَ النفس ترشَحين بالعرق... لماذا تصرُّ تلك الفتاة على اصطحابك في الرواح؟! إن كانت تعتقد أنها تردُّ بذلك الجميل على نسخِها المحاضرات منك وشرحكِ لها ما لم تفهمه أو ما لم ترد فهمَه يومًا فهي مخطئة، فأنتِ لا تأخذين منها شيئا بل تدفعي من أعصابك طيلة الطريق فواتيرَ مؤجّلةً تسددينها في البيت دموعًا تُغرِق الوسادة...

كذبَ أبوك وقبلَه كذَبت أمك وهما يردّدانِ في كلِّ ليلةٍ وصبح ألّا أحد يعرف ما في جيبك أو بطنك... كيفَ ذا والفقر ينتصب قاطعًا دونَ رحمةٍ أشلاء أحلامك؟ مهما حاولتِ أن تتَستَّري على الفقر سخرَ منكِ مُعلنًا عن نفسه برائحة مميزة تشمُّها الأنوفُ الطويلة عن بعد».

تلمحُ فتاةً أخرى جالسة داخل السيارة. نظرةٌ سريعةٌ بدت كفيلةً أن تدركَ أنّها كزميلتها معرضُ أزياءٍ مُتنقّل، ومكتبُ تسويقٍ متحرّك للشراء.

«هل تلاقتا اليومَ صدفةً أم اتفقتا على السخرية منها طيلة الطريق؟». تحاولُ أن تغمض عينيها وتتوارى عنهما بعيدًا. ترى محاولتَها عبثًا بعبث ومراوغةً مكشوفة. «مهما فعلتِ لتنقذي اليوم نفسكِ لن تفلحي أبدًا... هذه السيارة المصيدة ستطبقُ عليكِ بؤسها وشقاءها... ستعتصرُها».

قد تبكي قبل أن تصلَ البيت وتُلقي بنفسها على الوسادة. أغلبُ الظن أن لقاءهَما لم يكن صدفة. ستعيش زمنا طويلًا بين لسانين نضجا في نار جهنم. يتقاذفانها كرةً من المطاطِ باليةً على أرض مزروعة بالشوك. يضعانها وجهًا لوجه مع فقرها ورقّة حالها.

أبوها لن يصدقها وأمها ستضحك من أوهامها... يقولان إنها تصنع من الحبّةِ قُبَّة، وإن البيضة عندها قصرٌ مُشيّد. ستختلي بنفسها مُفرّغةً دموعها... لن يكون هناك شاهدٌ على تعاستها سوى عينيها المحمرَّتين. لم يعد يجدي تصميمها على ترك الجامعة... هي ذاتها باتت تتلهف على احتساء المعارف لتحيا برأس عامر.

«هذه الميزة وحدَها ما تجعلك محسودةً من الجميع... يصفونكَ بالمُسجِّلةِ التي لا يغيب عنها شيء ولا تنسى شيئا... أما أبوكِ فيضحك وهو ينظر إلى نتائجك، ويعزو تفوقك إلى الفقر... هذا الأب لا يريد أن يصحو من وهمٍ كاذب... ليس للفقر أيادٍ بيضاءُ عليّ إلا إذا كان للعاهَة أيادٍ بيضاء.»

تسمع ضحكاتٍ مُجلجلة يخالطها صوتٌ مغناج يترنّم باسمها. تنتبه إلى أنها قد تسمّرت مكانها. تلوّح لها زميلتها بدفتر المحاضرات وتهيب بها أن تسرع.

«حسنا فهذا دفتر محاضراتي الذي تذكّرني من خلالهِ بأنّها ستدفع لي الآن الثمن... أي جميلٍ تردّه وهي تدسُّ طيلة الطريق مفتاح ثرائها في أقفال عدة؟ لا تشبعُ ولا تصاب بالتخمةِ من أحاديث الثراء في المدرج والساحات وتحت ظلال الشجر! ما الذي يجعلها تُطلِقُ لسانَها بالزهو مع أن كلَّ شبر فيها ينطق بألف لسان؟ السيّارة ليست إلا مجردَ عنوان صغير لثراء فاحش. هذه السيارة المصيدة ستطبقُ على عنقك وتستل أنفاسك... لابد لكِ من عذر، ولكن أي ذريعةٍ تلك التي من الممكن أن تعلّلَ ركوبَك الباص المزدحم؛ بدلًا من سيارة بانتظارك تركبها الشمس؟ بعضُ المواقف لا تمنحُ الأعذارَ منطِقًا مُقنعًا فإن تذرَّعنا بها بدت أكثرَ سخفًا من الوقوف على الرأس أمام حشد هائل».

اسمُها يتردَّدُ عاليًا ملحاحًا. تشعر أنها حيوان صغير في حظيرة ضيّقة بابُها الوحيد يؤدي الى المسلخ. «لا مفر من الإقدام.. تستطعين على الأقل أن تدحرجي النار على كفك بتحويل الحديث إلى الأساتذة والمحاضرات والمعارفَ الصعبة التي تحفظينها عن ظهر قلب. أطلقي سراح لسانك لو مرة فقط...

لماذا تقيدينَه دائمًا وهو الورقة الرابحةُ في هذا الجو العابق بالزهو. إن كانت هذه الفتاة تمتلك سيارةً ومالا وعطورا وثيابا؛ فأنا أيضًا أمتلك ثروة كبيرة داخل هذا الرأس، فَلِمَ أقفلُ عليها الأبواب بدعوى التواضع؟».

تتكوّم بضيقٍ واضحٍ في المقعد الخلفي. تنطلقُ السيارة ممسكةً بذيـلِ الريح. كما توقَّعت بالضبط، ليس هناك من حديث غير الثياب والعطور والسهرات والأصدقاء. تتململ متذمرة. تمدُّ رأسها فاتحةً فمَها في محاولة لوقفِ زحفِ الحديث إليها، والاستيلاء على أعصابها، فتحاول جاهدةً تحويلَ مساره الى الجامعة.

تقطعُ محاولاتِها ضحكاتٌ صاخبة. «لا يبدو أنهما تشعران بوجودك... ولكنك موجودة بدليلِ هذه الصخرة الجاثية على أنفاسك؛ وهذا العرَقُ الراشح منك ميازيب. ليس هناك لحظةُ صمتٍ واحدة تنفذين إلى الحديث من خلالها بهذا الرأس العامرِ بالمعارف...

حتى هذه السيارة تنطلقُ سهلةً رخَوَة كأنما تمشي على حرير... لا آملَ بعطلها وتوقّفِها... الباص الذي تركبينه كل يوم في الذهاب يتقلقلُ ويخشخشُ ويتمايل بطةً أثقلَها الدهن... ولكنك هناك تستطيعين وضع أصابعك على مشاعرك الدفينة... ترين الشوكَ يتحولُ إلى وردِ عطر...

يسخرُ أبوك من أحلامك. لو يرى هذه السيارة كيف تسير على أجنحة الحلم لأدرك أنه في الحضيض؛ ولصامَ دهرا عن إلقاء المواعظ والحكم. لو يزيلُ عن عينيه الغشاوةَ التي ولِدت معه لكفَّ عن تقبيل يده ظهرا لبطن على نعمة الخبز اليابس...

عيبُ هذا الأب أنه يعتبر الفقر قدرًا وقضاء، أما المعدةُ فوحشٌ مفترسٌ على العاقل الكيّسِ أن يروّضَه... العجيب أنه يلاقي من يصدقه ويبصم على كلامه... فأمُّك أيضا تعتقد أن خير الأغذية العدس، وخيرَ المواقد القلوبُ المتحابّة».

تهاجمُها موجةٌ من السعال. تطاردُ بيدها سحبَ الدخان المتدفقة من فم الفتاتين. تستديرُ كلٌّ منهما نحوها ضاحكة. تقول السائقةُ فيما الأخرى تمدُّ نحوها علبةَ سجائر فاخرة:

- لا تتعبي نفسك... إنها لا تدخن ولا تشرب.

تستردُ الفتاةُ العلبةَ بتصفيرةِ استغراب طويلة. «هذه فرصة مناسبة لأن تحولي الحديث إلى ما تشتهين... لكن رأسك هذه

المرة لوحٌ أسود، وفمُك زنزانة يقبعُ فيها لسانُك جثةً بلا حراك... ماذا حدث؟».

تقول بصوتٍ مُتقطع :

- بالعكس فأنا ادخن و...

تشتبكانِ في حديثهما المُفضّل. لا يبدو عليهما أنهما تسمعانها أو تريَانها. تتمنى لو تعرضانِ عليها لفافةً أخرى فتأخذها وتدخن نصفَها أمامَهما. تنفثُ الدخانَ في جوِّ هذه السيارة الحلم فتسمِّم به الهواء. وتخبّيء النصف الثاني لتحرقه على مرأى من أبيها وأمها فتسمع بذلك منهما حِكمًا جديدة.

أول شيء عليها أن تقومَ بهِ بعد أن تتخرج هو أن تتعلم كيف تدخن! وتدفع الدخان من أنفها كما تفعلان! لن تبخلَ على نفسها بالثياب، وستشتري سيارة تسير كهذه على أجنحة من الحلم السعيد. «سأضعُ ذلك الأب وتلك الأم في عربة الحياة الحقَّة ليعرفا أن السنينَ التي انقضت أشغالٌ شاقّة في بحر من الرمال تحت شمس محرقة محترقة».

تصحو على زعيقِ الفرامل وصوتِ ارتطامٍ لملمَ أحلامَها وألقى بها من النافذة وداستها العجلات. ترى مُقدّمةَ السيارة تعانقُ مؤخرة عربة أخرى. تهبُّ عليها نسمةُ ارتياح. تكف الفتاتان عن الثرثرة. تتوقع أن تلطمَ السائقةُ وجههَا وتشدَّ شعرها وتبكي بحرقة.

تمدُّ عنقَها تتفرس بها عن قرب. ترى الهدوءَ ما زال يعوم على صفحة وجهها الجميل.

«إذن فهي لم تفقد تحرّرَها وغرورَها!... لو كسرتِ بيضةً أنتِ لقامت الدنيا ولم تقعد، ثم لاجتاحَك ندمٌ ماحق قبل أن يتجهّم وجهُ أمك؛ ويصبَّ أبوك على رأسك اللعنات... اللعنة على هذي الحياة».

ترى السائقة تمط شفتيها استهانةً ثمَّ تمضي إلى أقرب هاتف؛ متعجِّبةً مِن شركاتِ السيارات التي لم تزوّد صناعاتها بهواتف داخلية... تسمعُها تقول بدلال:

- بابا... السيارة تهشّمت... أرسل إلي سيارة أخرى.

«آه... لو كسرتِ بيضةً أنتِ يا مسجّلةَ المعارف الصعبة لزُلزِلَت الأرضُ وانشقَّ القمر وأخرجت الألسنُ لعناتِها... اللعنة».

تشخصُ إلى الأفق البعيد... ترى السماءَ لا تثبتُ على لون واحد. تحدّق في الفراغ وهي أكثر تصميمًا على أن تضع ذلك الأب وتلك الأم في عربة الحياة الحقّة؛ ليعرفَا أن السنين التي انقضت قبلَ ذلك كانت أشغالا شاقة في بحر من الرمال تحت شمس محرقةٍ... أو محترقة».

السُؤال

لحظةَ أن توارَت بيوتُ القرية الطينية، وخزَه الفراق وخزًا مُوجعا. تخيّل كيف ستلاقيه المدينة بعد ساعات قليلة مصعّرة خدَّها وكيف ستعرِّيه آلافُ العيون! «ما ضرَّك لو انتظرتَ عاما آخر فربما صَلحُ الحال؟ تشترى لك قيراطا من الأرض؛ لو زرعتَه بالثوم والبصل لكفاك ضياعَ التعب في أرض الأسياد. ما ضرّك لو انتظرت؟ تعرفُ المدينةَ وتعرف ناسَها... القريةُ بكلّ مساوئها أفضل... هنا على الأقل ترى وجهَك المُتعب في مئات العيون... أما المدينة فلن ترى منها غير الظَهر أو وجهَا المنتفخ كرهًا لك. لقد دفعَك إليها أبوك ذات مرة كما تذكر صغيرًا فلم تجد فيها إلّا جهنَّمَ الحمراء».

احتشدَت في رأسه الذكريات. تخيَّل المدينةَ وحشًا كثيفَ الشعر يشحذ أنيابَه ومخالبه عليه. زامَ في المقعد. حملته يدٌ مجهولة وألقت به من السيارة فعادَ ركضًا يمرّغُ وجهه بالتراب ندما خالصًا عمّا كاد يفعله.

حين سقطَت قواطعُه العليا وهو في الحقل؛ رماها إلى عين الشمس طالبًا إليها أن تأخذ منه أسنانَ حمارٍ وتعطيه أسنان غزال. ولكن أباه حينَها تسرَّع وأرسله إلى المدينة قبل أن تزوره الغزالةُ في النوم. بحجّةِ أن سنةَ القحط أكَلت ذيل الأفعى. دفعه أبوه إلى الحافلة. لم يعطه زادًا غير حفنة من

الوصايا تسرَّبت من رأسه الصغير وهو يسرّح الطرفَ في حدائق المدينة الخضراء وبيوتها السامقة.

وحين تسلسل في أذنيه صوتُ أبيه «عُد ظافرا ولا تُشمت بي الخلق» قال إنه سيعود إلى القرية زائرًا فقط ليحمل إليها المطر؛ فينبت الزرع ويمتلىء الضرع.

تخيَّلَ النقودَ مبذورةً في الشوارع وما عليه إلا أن ينحني ليجمعها وينشرَها في حجِر أبيه. ستستقبله أمه بالزغاريد. القرية كما يراها بقحطها المزمن شجرةُ دُوم يستحيلُ عليه صعودها. أما المدينة فشجرةُ جوز له الخيارُ في أن يصعدها أو يهزّها لتساقط عليهِ من ثمرها الشهي.

يومها رأى الرجال غيرهم في القرية. يركبون سيارات لامعة نظيفة، ومَن مشى منهم راح يتبختر مُتطلعا بعينين صافيتين من فوق أنف شامخ. أمّا الصغار فلم ير أيًّا منهم عاريَ القدمين، مُمزقَ الثياب، معفّر الرأس.

تساءل إن كان لهؤلاء الصغار آباءٌ وأمهات؛ فاستبعد أن يكون لأي منهم مثلُ أبيه وأمه يغطيَانه في الليل خشية البرد. ولمّا هاجمَه حنينٌ جارف إلى القرية، تأكّد له أن أمَّه فقط مَن تحبه لأنها عارضت تركه القرية في الأصل. اشتاق لذراعيها الدافئتين. جلجَلَ في رأسه صوتُ أبيه «اشتغل بيديك ورجليك وأسنانك».

تساءلَ إن كان ما أُسقِطَ في يده المفتوحـة بغير قصد مِن هباتٍ يدخلُ في باب العمل؛ فاستبعَدَ أن يرضى أبوه بذلك. رمى بالنقود. غازلَ رنينُها أذنيه. ركضَ في إثرها فأعجزه جمعها من جديد.

خبّأ يديه في جيبي بنطاله وراح يصفعُ الشوارعَ بحثًا عن عمل. لفظتهُ الشوارع. شاهد البناياتِ تنحني وتُطبق عليه. توجّه بعينيه إلى السماء فلم يَجِد تلك الزرقةَ التي طالمَا سحرته في القرية. أمّا الشمس فكانت لصًّا يتسترُ خلف البنايات الشاهقة فلا تبتسمُ له؛ كأن لم يكن يركضُ تحتها عاري الرأس والصدر والقدمين.

هز رأسهُ بأسى. «قد لا تكونُ هذه الشمس ذاتها التي أعرفها؛ فتلكَ تطلعُ كعادتِها دافئةً حنونةً، تتبختر ببطء إلى أن تتوارى خلف التلال الغربية لتغفو وتنام هناك».

تكدَّس في صدره الحزن. شعرَ أن أباه حمَّله فوقَ ما يحتملُ حين رماه في هذا البحر الهادر قبل أن يعلِّمه السباحة؛ أو يمنحه قاربًا وإن كان مثقوبًا يقطعُ به مسافاتٍ أطول من تلك التي عليهِ قطعها قبل أن يغرق أو يغرقَه... اشتاق إلى ذراعي أمه. تخيل وجهَها الذي ألصقته بزجاج الحافلة تاركةً دموعَها عليهِ ترافقه في رحلته. ظلَّ يراقبها من الداخل حتى ضربتها الريح وجففتها كروحِه.

تكوَّمَ على الرصيف الذي قادته إليه ورقةٌ أُلصِقت على واجهةِ إحدى الواجهات الزجاجية في الطريق. أسندَ ظهرَه إلى جدارٍ اهتزَّ لوقعِ جسمه الصغير. تعجَّب من وجود هذا الطين الأسمر المتهدم بين هذه الجبال من الحجارة البيضاء والحمراء. «هذا الطين غريب وأنا غريب». تغلغلَ فيه الشعور بالألفة. ألصق وجهه بالجدار وأغمض عينيه فنام.

أحس بلكزة موجعة. فتحَ عينيه مذعورا. رأى رجلا بكرش ضخمة تقبضُ أسنانَه الصفراء على غليون يحترق. هبَّ واقفا يتفقد الجدار... ولما رآه واقفا بطِينِه الأسمر عاوَدَه الشعور بالألفة. قال بثقةٍ وهو يتابعُ الدخانَ المتصاعد من عيني الرجل والغليون:

- جئت أبحثُ عن عمل.

أشارَ الرجلُ إلى سيارة سوداء فارهة وأمرَه أن يتبَعه. تواثب قلبُه طربًا وراح يقفز من خلفه.

حال أن رمى بنفسه في المقعد الخلفي غاص في طراوة ناعمة. لم يفطن لأول وهلة للصبيِّ الجالس أمامه يداعب بندقيةَ صيد. لم يشعر بالسيارة تمضي. فقط أبصر البنايات والأشجار والناس كلها تفرُّ من جانبه بسرعة مذهلة. تمنى لو أن والديه يريانه وهو يركب الريح.

«كانَ أبوك دائمَ التذمّر من الحظ العاثر... لو يرى كيف جاءك الحظ وأنتَ نائم لقهقَه مسرورًا؛ ولقامت أمّك تغلي الشاي وتدعو أهل القرية وتفرش لهم الزغاريد». كفَّت الأشياء عن الحركة. طالعَه قصرٌ فخمٌ وتلالٌ من الرمل الأحمر تحفُّ بها غابةٌ من شجر البرتقال. أشار الرجلُ إلى الرمل دون أن يلتفت إليه.

- ما عليك إلا أن تفرشَ هذا الرمل فوقَ هذه الأرض الخلاء.

والتفتَ إلى الصبي باسمًا مُداعبًا شعَره الأصفر.

- أرني كم تكون غنيمتك هذه المرة من الصيد!

ربتَ على البندقية ووثب من السيارة واختفى بين الأشجار.

طارده صوتُ الرجل محذِّرًا.

- حذارِ من الشمس!

قهقَه مسرورا ثم التفت إليه بوجه صارم قائلا بغلظة:

- ماذا تنتظر؟ انزل.

طوَّح به الصوت الغليظ ورماه خارج السيارة. وقفَ مشدود الأعصاب. انزلقَت عيناه على الرمل المتوهج تحت الشمس. تابعَ الصبيَّ وهو يتربصُ للطيور بحذر. لوى عنقَه ثانية إلى الرمل.

تساقطت حبَّاته المتوهجة في عينيه جمرات حارقة. فركَهما يمسحُ الدموع. اختلسَ نظرةً مترددة إلى البوابة. ألفاها تغمز له مرحبة. جلجل صوت أبيه. «لا تشمت بي الخلق». فركَ يديه ارتياحا. «هذا سهل». أرسلَت إليه الشمسُ طلقةَ تحذير من قرصها الملتهب. أدار لها ظهرَه وشرَع يفرشُ الرمل. بدأ جسدُه يرشح بالعرق. ألقى على الشمس نظرة عاتبة. «حتى أنت!». ولمَّا كشّرت له عن أنيابها أقسم أنها ليست تلك التي كان يركض تحتها عاري الرأس والصدر والقدمين.

هرولَ إليه التعبُ سافِرَ الوجه. لمحَ الصبي يترصد بالعصافير وهي تختبىء تحت الفروع طلبًا للظل والأمان. أجرى مقارنةً سريعة بين الصبي وبينه. «إنه على الأقل لا يرشحُ بالعرق وشعرُه لا يزال مبعثرا من يد الرجل؛ وهو يوصيهِ بالصيد ويحذّره من الشمس». تذكّر وعيدَ أبيه ووصيَّةَ الرجل. طمأنَ رأسَه «لماذا؟». ألقاهُ السؤال داخل أنشوطةً تركلُها ريحٌ عاتية. دارت به الأرض، وكذا الشمسُ غدَت تُغزلُ في سماء داكنة، أيقظه إطلاقُ رصاص وزقزقةٌ مذعورةٌ خشخشَ لها الشجر. فتح عينيه على تلال الرمل فتساقط الغيظ في نفسه تلالا. ركل الرملَ بعنف ومد لسانَه للشمس وعاد إلى القرية؛ حيث كانت الشمس التي تعرفه تطبعُ على التلال الغربية قبلةَ الوداع قبل أن تتوارى لتغفو وتنام هناك.

بعضُ الطيورِ مهاجرة

ظلَّ يبحثُ عن كلمة مناسبةٍ يقولها لابنِه فينتزعُ بها عن وجهه هذه القشرةَ السميكةَ من الشعور بالغبن والإحساس بالشقاء. لم يُفلح، كما أعجزَه طيلةَ سبع سنين خلَت إقناعُه بأن الظروف كانت أقوى منه؛ فحالت دون تحقيق حلمه القديم بالذهاب الى الجامعة فيعود منها اليوم كما عاد ابنُ السيد «شهوان» طبيبًا تهتزُّ الأرض من تحته؛ ويستقبلُ أبوه مئاتِ المهنئين.

غرِقَ في بحر من اليأس. أمنيته المُلحّة بالموت دفعته دفعا إلى أن ينعى ذاتَه في الصحف؛ ويحتل اسمُّه مكانًا واضحًا في صفحة الوفياتِ والنعي. صعَّر خدَّه لتلك الزوبعة التي أثارَها بفعلته. فقط أحزنَه ألّا يقدر ابنُه مشاعرَه. أطلق زفرةً حرى خشخش لها صدره بفعل ما يدخِّنُه من تبغٍ رخيص.

«لا بأس. منذ أمدٍ بعيد وأنت ترى نفسك قابعًا في زاوية منسية بلا معارف أو أقارب أو أصدقاء. حتى الأقارب قطعوا آخرَ خيط يربطهم بك بعدما سبقَهم الفقرُ إلى قطع بقيّة الخيوط... لماذا يستنكرون فعلتك الآن وأنت أصلا ميت؟ تحيا كأيّ دابة لتأكلَ وتشرب وتنام في الليل مع فأس تجوب بها أرض السيد في النهار! ليت النعي كان صحيحًا، إذن لتخلصتَ من عذاباتك الدائمة. الموت وحده مَن سيخلّصك من نظرات ابنك الحارقة التي يصوّبها إليكَ؛ فتتحولُ إلى دودةٍ تسعى جاهدةً دون أن تبرحَ مكانها.

ليتك من الأصلِ كنتَ في زُمرةِ الديدان... إذن لارتحتَ وأرَحتَ ابنك الوحيد.. هذا الابنُ زهرةٌ بريّة نبتَت سهوا في حياتك القَفر. لم تجد غيرَ الدموع تغذّيه بها والآمال. وعندما كَبُرَ ووصل إلى ذلك الخط الفاصل بين الحقيقة والوهم؛ أدركتَ أنكَ كنت تشجّعه على السباحة في الرمل. لو رميتَه منذُ البداية في بحر الحياة الهادر لرأيتَه الآن جنبا إلى جنب مع شهوان؛ فترفعُ رأسا طالما أحنيتَه على أرض يملكها غيرك.

مذ كان صغيرا ظلَّ متفوقًا على ابن النعمة واليسار. كنتَ تدفعُه إلى أن يتبخترَ بالدروس بصوتٍ يسمعه السيد أثناء شربهِ للقهوة، أو وهو يدّخن السيجار في شرفة القصر ليعلم أنك لن تحملَ الفأس يومًا؛ ولن تسقي من عرقِك الأرضَ للأبد. اقتنعت دهرًا أن الفقر ما هو إلا حالة طارئة وفصلٌ باردٌ في سنين مقبلة تزخر بالدفء.

الحقائقُ التي رأيتَها فيما بعد أقنعتك بأنك عشت في وهم وأرضَعَت ابنَك بالوهم. كان السيد على حق وهو يقول ليغسلَ من عيني ابنه الفاشل الحزن: "المالُ يشتري كل شيء حتى الشهادات". اليوم تحققَتَ أنه كان ينطق بالصواب. لقد عاد ابنه بشهادة عريضة اشتراها أو نالها بجدارة... لا يهم. المهم أن المال هو الجسرُ بينما ظلَّ ابنك أنت مزروعًا معك في أرض غريبة.

بعد أن كنتَ وحدَك تعتصرُ العرقَ لتصبَّه في جيب السيد صار يصبُّ في جيبه اثنان؛ أحدهما كان مُقدَّرا له أن يعود بالأمس طبيبا تهتز الأرض تحته. يُحطِّمُ الفأسَ أو يبقي عليها ويزرعُك في أرضٍ تملكها أنت. كلُّ الأحلام الجميلة تبدَّدَت فلماذا يستنكرون أن تنعى نفسك؟ حجّتهم أنكَ ما زلتَ حيًّا تُرزق، تتنفسُ وتأكلُ وتنام.

هل المفروض أن تتوارى في قبرٍ مُظلم لتكون في عِداد الأموات؟ أي معنى لحياة لا سبيلَ إلى أملٍ واحدٍ فيها يتحقق؟ إنك تحس بالموت منذ أمد منذ بعيد؛ بل من اللحظة التي ولدتك فيها أمك. والشواهد كثيرةٌ أكبرُها ابنك الذي بتَّ موقنا أنه لن يغفر لك وقوفك في طريق أحلامه العراض بفقرك المزمن هذا. ظللت ترسمُ على ثغرك ابتسامة من الرضى زائفةً حتى ظننتَ أنك أطفأت النار المتأججة في صدره لحرمانه الجامعة.

كنتَ مُتأكّدا أن سيحصل على بعثةٍ بالمجان فيسدُّ الذكاء الفطري شرخـًا أحدثه الفقر. وحين عادت أوراقه تنعى أحلامك بالجملة حمَلت الفأس؛ وبدلًا من أن تنبشَ يومها التربة شرعت تنبش في سيرتك إن كنتَ مرة أكلتَ حصرمًا فشرِقَ به ابنُك الآن. ولمّا لم تجد ذرّةَ فساد واحدة يحمل عنك وزرَها أيقنتَ أن الفقر والحظ النحس هما من قصّا جناحي أحلامك تلك.

لو كان لديك المال كشهوان ما أخرسَتك المفاجأةُ ولكنتَ تستقبل مثله المهنّئين. صحيح أن لن يكون عددُهم بهذه الكثرة؛ كما لن تكونَ أمام كوخك سيارةٌ واحدة من مثل هذه السيارات التي تركبها الشمسُ في النهار، والنجومُ في الليل؛ غير أنك ستكون في غاية السعادة وأنت تعبرُ منعطفَ الفقر الخطر إلى عالم أرحب لا يسودك فيه أحد، بل يكفيك أن يسعد ابنُك وألّا تنامَ في عينيه تلك النظرةُ من الحزن القاتل... قمةُ المأساة أن يكون هذا الابن واحدا من تلك الطيور المهاجرة، تظل أجنحتُها معلّقةً بين السماء والأرض دون أن ترى جزيرة خضراء تحط عليها رحَالَها».

زفرَ بحسرة. ترنّحت شجرةُ اللوز التي يجلس تحتها وابنه المنكس الرأس. طاف بعينيه على وجهه المتعب. هالَه أكداسُ الحزن هناك. أغمض عينيه في وجه دمعتين تمردتَا واستقرتا أسفل ذقنه. هرَب إلى الأغصان اللاعبة مع النسيم. تصوّر نفسَه شجرةً عارية بلا أوراق وثمر وبلا ظلال؛ يهوي ابنُه على جذعِها بفأس حادّة يجتثُّها من الجذور.

يسمعُ همهمة ساخرة. يلتفت إلى ابنه. يرى على زاوية فمه تلك الضحكة التي لم يفلح في إطلاقها أبدا. يتأكد له أكثر أنه بفعلته تلك لم يزده إلّا حزنًا وسخرية منه. «إنّه يحمّلك ضياعَ سبع سنين... بل ضياع العمر... كنتَ مُغفَّلا حين ظننتَ أنك ستمتص نقمتَه عليك بنعيكِ ذاتك في الصحف».

ينتفض واقفا بالفأس. يهزّهُا في وجه ابنه ويصيح:

- لماذا أنت صامت؟ قل شيئا... أي شيء... العنّي... سُبَّنِي... فقط قل شيئا... أي شيء.

تلقاه بابتسامة باردة. يدفعُ إليه الفأس صائحا.

- خذ الفأس وحطّم بها رأسي؛ فقط لا تسخر منـي بصمتك.

أدار وجهه ناحية الأفق البعيد وغمغم:

- ألم تنعَ نفسك؟ هذا يكفي.

ثم وهو ينترُ جسَده واقفًا حاملَا الفأس.

- لن أصنع مثلك... لن أنعى نفسي حيًّا.

يهجمُ على الأرض يفرّغ فيها غيظه. يتوسّل إليه أن يرحمَ نفسه. يدفعُه عنه. يهاجمُ الأرض بشراسة وعناد. يتفصّد منه العرق. يتوقّف عن الحفر. يلهث. يلّوح بالفأس ويركض نحـو الأفق البعيد مرددًا «أنا حي.. أنا حي»... يتفجّر في صدره نهرُ الدموع. يسخرُ من البكاء في لحظة التلاشي والفناء. يشتدُّ به الظمأ إلى ضربة ماحقة بالفأس تقطعُ أنفاسَه للأبد. يتهالك على الأرض. تترنّح من حوله الظلالُ والأشجار. يدخلُ في ظلمةِ ليلٍ حالك. تمتدُّ إليه آلاف الأذرع. تُلقيه في حفرة ضيّقة وتهيلُ عليه التراب.

مثلُ كلِّ الفقراء

الليلةُ بالذات تحسُّ بجوعٍ كافر يفترسُ بقيةَ صبرها. ترى هل الكعكُ لطولِ ما التهمته أعجَزَ مِن أن يصدَّ هراوةَ الجوع وحده؟ «ماذا لو طلبتِ من ربّة البيتِ هذه شيئًا غير الكعك! هل ستعلّلُ بأن لا أسنانَ لك وأنه أكثر ما يلائمك؟ أم تراها سترميكِ بالطمع واستغلال حاجة الأولاد لحكاياتكِ حتى يناموا؟».

ما جرّبَت أن تطلبَ شيئًا آخر من قبل؛ وربّة البيت بدورها لم تعرض عليها شيئا غير الكعك. تروحُ تغمسُه الواحدةَ تلو الأخرى بالشاي. تزدردهُ بلا مضغ؛ وتتجشأ ثم تنشر حكاياتها لينتقوا منها الجديد. وبعدَها تنطلقُ فرسًا جامحةَ لا يردها شيء حتى تهمس لها ربة البيت بما يشبه الأمر أن تصمت.

ترخي أذنيها لأنفاس الصغار وقد انتظمت بين أحضان النوم. تلملمُ أطرافَ ثوبها وتنهض تتحسسُ طريقَها بين صياح الديكة إلى حجرة لها في طرف البلدة؛ تسمعُ من هناك عواءَ الذئاب.

جلَسَت ساكنة ويداها تنامان في حجرها بلا حراك. للصمت من حولها دبيبٌ حذِر كذاك الذي يسبق العاصفة. شهيّتُها للحديث الليلة دون الصفر. لسانُها الذي دائما صخرة يتحطّم عليها الجوعُ يتمرد ويدير لها ظهرَه. رأسُها ساحة معركة تناثرت فيها الحكايا جثثًا هامدة.

لم يسبق للجوع أن دمّر كلَّ شيء فيها حتى لسانها. تدفعُ ربة البيت إلى يدها كعكة. تعرف أن هذه الحركة ناعمة الملمس لأمر فظ. تثور على وجهها زوابعُ بلا بداية أو نهاية. تهمُّ أن تلعن الحاجَةَ بصوت مسموع. تطوي رغبتَها وحنَقَها وتسكت.

يتكوّم أصغرُ الأولاد في حجر أمه. في يده كعكةٌ لم يمسّها بعد. عيناه تذوبان لهفةً على فم العجوز بانتظار أن يشربَ منه حكايةً جديدة أو قديمة. تقلقُه حالُها الليلة. دائما يراها تستعد للحديث بدس الكعك في الشاي بمهارة المُبصرين. تدهشُه حكاياتُها تماما كطريقتها في الأكل.

تقذفُ الكعكةَ كاملة في جوفها بلا مضغ عبرَ فمٍ بلا أسنان. كلُّ ما هناك لثّتان زرقاوان ولسانٌ دقيق يبذر أطنانَ الكلام المنسق عن الغيلان واللصوص وعلي بابا والزير سالم. «ما حدث لها الليلة؟» ينظرُ الصغير إلى أمه يستوضحُها الأمر. يتلبّد وجهُ الأم بالغضب... تقول محتدّة:

- مالك يا حاجة نزهة؟

تبتلعُ زفرةً أوشكَت أن تفلتَ منها. تتبلعُ أول كعكة على مضض. يغدو من حقّهم الآن عليها أن تثرثر لهم؛ وقد دفعوا لها الثمن. تقول بلا حماس:

- ما رأيكم بحكاية «نص نصيص»؟

طقطقَ البعضُ بشفاههم:

- لقد سمعناها من قبل. هاتي غيرها.

تسمعُ الأمُّ تنتهرُهم ثم تقول:

- لا لم نسمعها، قصّيها علينا يا حاجة.

جاهدَت بحلّ أصفادِ لسانها. قالت إن السببَ في صورته المسخ أنّ أمّه العاقرَ اشترت تفاحةً للحَمل؛ فقضَمَ حمارُ البائع نصفَها بينما أكلت هي النصف الآخر.

ضحك الصغيرُ حتى اغرورقت شفتاهُ بالقهقهات ناظرًا إلى بطن أمـّه المنتفخة وقال متوسلا:

- كلي يا أمي نصف تفاحة وأطعمي حمارَنا النصف.

ضحكت الأم مسرورة حتى استلقت على ظهرها. فركَت أنفه بحب. ابتسمت العجوزُ أو خُيّل إليه أنها تبتسم؛ ورسَمَت بيديها ما يساوي نص نصيص. قال وهو يدقق في عينيها المنطفأتين:

- هل رأيتهِ يا جدة؟

اغترفت من صدرها تنهُّدةً حَرّى. بَسطَت وجهَها وطوَته قائلة بأسى عظيم:

- لو كنتُ أرى ما سمعتَني أثرثرُ الليلةَ وكلَّ ليلة.

ألقى على أمّه نظرةً متوجسة فقالت هذه مغضبة:

- ماذا جرى لكِ يا حاجة؟ روحُك على ما يبدو الليلة في أنفك.

زمَّت شفتيها وابتلعت نصف زفرة تمرّد نصفُها الآخر. قالت الأم للصغير وهي تمسح على شعره:

- كُف عن توجيهِ الأسئلة ودعها تكمل... هه وبَعدَ أن ركِبَ الجدي؟

رفعَت وجهها متسائلة:

- وهل وصلتُ عند الجدي؟

- آه ركبَ الجديَ وضربَه بالمِحجن فسَبقَ خيلَ أخوته من أبيه.

احتقَنت أخاديدُ وجهها بالتذكر.

-هل قلتُ إنّه سبقَ الخيل؟

زفَرَت الأم بصبر نافذ وقالت بتقزز:

- الحقيقة لقد قلتِ ذلك في مرة سابقة.

- إذن فأنتم تعرفون الحكاية.

أمسك الصغيرُ بيدها يهزّها برفق.

- أنا نمتُ قبل أن أسمعَها للآخر.

وقالت الابنةُ البكر:

- وأنا كنت مسافرةً مع أبي.

ظلَّت متحجرةَ الملامح. إحساسها بالمهانة قطارٌ يمرُّ عليها سريعًا... يسحقها... ينثُرُها ذرّاتٍ لا تراها العين. تتناولُ ربّةُ البيتِ كعكةً أخرى... تدسّها في يدها على شكلِ أمر.

- أكملي يا حاجة نزهة، أكملي.

تتركُ الكعكة تسقط من يدها. تقول وحلقُها يغصُّ بالدموع:

- ولكنكم سمعتموها من قبل!

تقول الأم بلهجةٍ تؤلمُها كضربةٍ سوط:

- ليست هذه الأولى. حكاياتك دائما مكررة. أكملي أو فلتأتي بحكاية أخرى جديدة.

- ليس لي مزاج الليلة.

مصمصَت ربةُ البيت بشفتيها..احتجت قائلة:

- ماذا؟! الأولاد لم يناموا بعد. أكملي.

قالت وهي تلملمُ أطرافَ ثوبها وتنهض:

- سأفكّر كيف يمكن لجَدي أن يسبق الخيل!

مطَّت الأم شفتيها بامتعاض وراحت تنفضُ الفراشَ بعصبية كأنما تُوقِعُ العقابَ على شخص مجهول. تحسست العجوزُ طريقَها إلى الباب. قال الصغيرُ وهو يمسكُ بيدها فيما يده الأخرى تقبض على كعكةٍ لم يمسها بعد:

- سأوصلك إلى البيت يا جدة.

راغَ من عينيّ أمه الزاجرتين. تقدَّمَها إلى الباب وراحا يجوسان في عتمة الليل. ترك الصغيرُ شعرَه طوعا لأصابع العجوز تعبثُ به دون انتظام؛ وخطواتها تدبُّ على حصى الطريق دبيبًا أثار بعضَ الكلاب فنبَحَت وهرَّت. قالت وإحساسها بحب الانتقام من نفسها يتعاظم:

- هل صدَّقتَ أن الجديَ يسبقُ الخيل؟

رفعَ وجهَه إليها:

- الخيلُ سريعة يا جدتي.

تابعَت وشبح الجوع ينتصبُ في رأسها ماردا بلا حدود:

- أجل سريعة... سريعة كدقائق هذه الحياة.

شدَّ على يدها.

- قولي لي يا جدتي، هل كان لنص نصيص يدٌ واحدة أم اثنتان؟

سكنت برهة حتى ظنَّ بأنها لن تتكلم.

- يدٌ واحدة بالطبع.

قال وهو يلتصق بها أكثر:

- لو أوصلَك مثلي فبماذا سيحملُ الكعكة؟

همهَمَت بفرحٍ وشدّت على يده فيما يدها الأخرى تعتصر بطنها.

- وهل معك أنت كعكة؟

- أجل، كاملة.

دسَّها في يدهـا المبسوطة. تحسستها بأصابع مرتعشـة. تنهدت قائلة:

- لا شاي عندي. لا بأس سأبللها بالماء.

- بالماء؟!

ضحك بانبساط. تباطَأت حركتها. خشخشَ الحصى تحت قدميها خشخشَةً موجعة. كفّت عن السير تماما. أخذت تتشممُ الهواء. همست:

- هل تشمُّ مثلي هذه الرائحة؟

قال غيرَ مبال:

- رائحةُ لحمٍ يُطبخ. هه.. وبعدَ أن سبقَ نص نصيص الخيل؟

رفعت أنفَهـا عاليا تستقبل الهـواء النَسْم. يشتدُّ ضغطُ أصابعها على بطنها. تغمغم:

- سأحكي لهم حكايةً جديدة... نعم... جديدة.

شعرَ الصغيرُ أنها تتبخّر من جانبه. هز يدها مُنبِّهًا.

-هل كانت أمّه تحبُّه؟

أعادت إليه الكعكة. قال مندهشا:

- لماذا؟

تلمَّظَت وتمتمت:

- ألم تقل إنه لحم؟!

وأردفَت وهي تفرك راحتيها سرورا.

- سأحكي لهم حَكايا من شهرزاد.

وانطلَقت تدبُّ فوق الحصى. أثارت الكلابَ المجاورةَ فنبحتها وهرّت. ظلَّ الصغيرُ واقفا ينظر إلى الكعكة مرةً؛ وإلى شبح العجوز المُوغل في الظلمة مرةً أخرى؛ ثم انقلبَ إلى البيت مُصمِّمًا على أن يطلبَ من أمه أن تطبخ في الليلة التالية اللحم ليسمعَ حكايا شهرزاد.

الخَنازير

ترجّل من السيارة التي حملته من المطار إلى قلب المدينة ذات العشرة ملايين. كاد ينسى الحقيبةَ التي فيها كتابٌ ودفتر وقميصٌ متسخ. وحدها الشاهدُ على أنه ينتمي إلى تلك الرقعة الصغيرة النائية في حوصلةٍ ما بين المحيط والخليج. هي جدًّا خفيفةً بالقياس إلى رأسه المثقل بخواطر لها أسنانٌ حادّة حمَلَها من أرض الوطن؛ حيث كلُّ فردٍ هناك متهمٌ إلى حينِ يُثبِتُ أنه بريء.

سألوه في المطار هناك عن غايته من السفر وحملِ كتاب. أجابهم وعيناه مغروزتان في أرضٍ صلبةٍ سوداء.

- أسافرُ كي أتنفس.

ضحكُوا وأغرقَوا في الضحك. نظراتُهم إليه سهامٌ رائشة. رموه بالجنون. ملأ أحدُهم صدَره بالهواء وقال بانبساط:

- الهواء كثير.

أغمض عينيه طويلًا. «الرؤيا في كثير من الأحيان عذابٌ طَوعي. يَحسُد العميَ؛ أمَّا مَن بهم صممٌ فلهم جنةٌ بعرض السماوات والأرض... البهائمُ في تلك الرقعة الصغيرة يحسُدُها؛ ذو الرؤوس الكبيرة قرونُها حصونٌ منيعة تتحطّم عليها حقائقُ مؤلمة تقتلُ أصحابَ النفوس المرهفة».

دسَّ أكثرَ من شرطيّ أنفَه في الكتاب. مزَّق أحدهم ورقةً منه وقال ملِّوحًا لرفاقة:

- سأذهبُ إلى المرحاض.

ألقوا ما تبقّى من الكتاب في وجهه. تركوا له دفترًا مكتوبًا بقلمِ رصاص ولم يعبأوا بتفحّصه؛ كأنَّ الحبر على الورق وحده ما يثيرُهم ويدفعُ بهم إلى الجنون. «فلتحترقي يا أيتها الرقعة الصغيرة المنتفخة زهوًا وغرورًا كالبالون». دفعَ باب الفندق الزجاجي بغلظة.

«بودِّه لو يحطم شيئًا ما وأول ما يحطم هذا الباب». وقفَ أمام فتاةٍ يسيل شعرُها الأشقر على كتفيها شلالًا من نارٍ ونور. على وجهها تمرحُ سعادةٌ بلا حدود أو قيود. لعلَّ مردَّها الوحيد أنها تطلُّ على شارعٍ فسيح من خلفِ بابٍ زجاجي شفاف.

«في بلادك الأبواب وكذا النوافذ من خشبٍ أو حديد وكلّها أمامك موصدة». قبل أن يسألَ الفتاة عن غرفةٍ شاغرة رأى من واجبه أن ينزعَ عن وجهه عبوسةً سافرَت معه. «من الجريمة أن تلطِّخَ هذا الوجه السعيد بِهْبَاب أيامك السوداء». تردُّ عليه الفتاة بابتسامةٍ لملمَلت أيامَه الماضية في كومةٍ كبيرة؛ صبَّت عليها زجاجةَ نفطٍ وأحرقَتها.

مفاتيح كثيرة معلّقة على الجدار المقابل. كلّها بيضاء لامعة عدا واحدٌ يميل إلى الصفرة. تميل نفسُه إليه. «ما خرجَ إلَّا ليعثرَ على نفسه الضائعة في زحمة أشياءٍ كريهة متشابهة».

تقول الفتاة والرقةُ طائرٌ ملوَّن يرفرفُ في عينيها ولسانِها:

- انتقِ أي مفتاحٍ تشاء.

صوتُها العذب يمسحُ عن عينيه غشاوةً رافقته سنينَ بلا حصر. «هذه أول مرة يتسنّى لك الاختيار.. كنتَ مكرهًا دائمًا على القبول».

تستطردُ الفتاةُ بصوتٍ حطَّم أغلاله :

- غرفةٌ واحدة غير مسموحٍ استئجارها.. وهذا هو مفتاحها.

تشير بيدٍ رخصَة إلى المفتاح الأصفر. يشهقُ استهجانًا:

- ماذا؟!

خرجَت من فمهِ مذبوحةً من الوريد إلى الوريد. «فراقُ الوطن جدًّا فظيع. لم تغادره إلا فرارًا من كلمة "ممنوع". هذه الكلمة المرسومةُ على وجه الشمس هناك والقمر. كانت تدوسُك بنعلها الثقيل ألفَ مرةٍ في اليوم. تراها أنَّى اتجَهت. هناك صادروا كلَّ شيء؛ حتى الهواء ألصقوا على وجهه يافطاتِ التحذير من مغبَّة الإسراف في الشهيق والزفير، ودون أن

تكونَ صورةُ الحاكم على بوابة الأنف معلَّقَةً برمشين على الأقل من كلِّ عين».

جاءَه صوتٌ ناعم سيظلُ يكسوه الزغبُ إلى ما بعد سن اليأس.

- هي في الطابق الأرضي على أيِّ حال وليس فيها ما يُغري.

تتشاغلُ بأوراقٍ أمامها. يظل واقفًا بلا حراكٍ فريسةً للدهشةِ والفضول. «كلُّ الغرف مسموحٌ بها عدا واحدة.. لماذا؟ سافرتَ كي تتحولَ طائرةً والعالم من حولك فضاء فسيح. شيء فظيع أن تُقبِل على مثل ما أدبَرتَ عنه. لا أريد غيرَ هذه الغرفة. إنني أعشقها قبل أن أراها. أتفانى بها. لهذه الغرفة مفتاح وهو بين يديّ، سآخذه حالَ انشغالِ الفتاةَ بأمرٍ ما فقط، أو يجب أن أشغلَها بشيء لآخذَه.. ولكن كيف؟!».

ضبطته وعيناه ملتحمتان على المفتاح. افترَّ ثغرُها عن ابتسامةٍ لم يجد لها في هذه اللحظة معنى. رآها تُبذُرُ شعرَها على صدرها النافر قبل أن تدفع الباب خارجة.. المفتاح يغمزُ له غمزًا مغريًا. مدَّ يده إليه. استقرَّ بين أصابعه دافئًا يتنفس. هرولَ يفتش عن الغرفة. ألفاها في نهاية ممر ضيق وحيدةً... مغلقةً يحرسُها الغبار.

فتحَها بلهوجةٍ بعدما استعصت عليه. غزت أنفَه رائحةُ عفنٍ ورطوبة ليست غريبة عنه. توغَّلَ فيها بعينيه. ليس فيها سوى نافذة واحدة وهي ليست من زجاج. «ها هنا أيضًا نوافذ من

خشب. يجب أن تحطم شيئًا ما». وثبَ نحو النافذة. اقتلعَها من الجذور. ألقاها تحت قدميه ووقفَ يلهثُ بفرح.

أرسلَ عينيه إلى بهوٍ مُغطى يعجُّ بالخنازير. رآها تتدحرج في غباءٍ ظاهر. تدسُ أنوفها الطويلة في أكوام القمامة... تطفحُ نفسه بالتقزز. يبصقُ ويغادر الغرفة مسرعًا. «يود لو يغلقها وبالشمع الأحمر للأبد».

وجد الفتاةَ في انتظاره تمرحُ على وجهها سكينةٌ وهدوء. يتقدّم منها بخجل وأنفاسُه تتناغمُ مع جهدِهِ المبذول. أرسلَت إليه ابتسامة تمرَّغَ فيها واستَحمَّ. مدَّت يدَها إليه. ألقى فيها بالمفتاح. قالت:

- كان الفضولُ على وجهك ينطقُ بلغاتِ العالمِ أجمع.

تكوَّمَت في صدرهِ ضحكةٌ لو أطلقَها لرمته الفتاةُ حتمًا بالجنون. «لو نَثَرّت أمامَها عذاباتِك ما صدَّقتْك. دع هذا الوجه الرائق الجميل صافيًا، ولا تخلطه بالوحل».

هزَّ رأسَه نادمًا. قالت مهوِّنه:

- لا بأس ستكون تلك الغرفة صالحةً لو أنت أتيتَ في العام القادم.

تساءل بفرح:

- والخنازير؟

حرَّكت أصابَعها الدقيقة حركةً ساقَت إلى صدره دفعةً نقيةً من الهواء.

- هناك نيةٌ أكيدةٌ بنفيها.

طوَّحَ بالحقيبةِ مرحًا. تناولَ مفتاحًا أبيض. هدهده برفقٍ وحنان. ينظرُ إلى الدرج الطويل. ترفرفُ في عينيه فرحةٌ غامرة. «كنتَ مجبرًا على الدوام أن تهبط دافنًا عينيك في الأرض.. هذه فرصةٌ نادرةٌ أن تصعدَ وعيناك إلى أعلى تصافحان السماء... تنبعجُ تلك الرقعةُ المغرورة وتأكلُها الغربان والديدان... آه».

شرعَ يصعدُ الدرجَ بخطى مسموعةٍ ولها رنين. هزَّت الفتاةُ رأسَها وتبسَّمت... لوَّح لها بيديه وهو صاعدٌ وابتسم بعدما استردَّ أنفاسَه.

هوَ والذُباب

تركَ بابَ الحجرة مفتوحا وخرج يتحدّى أحطَّ سارقٍ أن يجدَ فيها شيئًا يغريه: سريرٌ يتوجع كالثكلى كلّما وقعت عيناه عليه. قميصٌ مُرصّع برقاع لا تمتُّ لنوع قماشه الأصلي بجنس أو مِلة. مَنامةٌ اعتصرتها أصابعُ الليل والنوم على الطوى. «فلتتركْها إذن مفتوحةً ولتلقِ بنفسك تحت سيارة مسرعة، ولتذهب الدنيا ومن عليها إلى الجحيم».

أولُ ما جلبَ انتباهه خلوُّ الشارع من السيارات. «ماذا؟» لا أبواق تزعق ولا عجلات تدور... حتى الموت يتآمر عليك، لا يريدُ لك أن تلقي بنفسك من مسافة تخذلُ السائقَ المحترف... تَطؤُك العجلةُ الأولى. تدق رأسَك. تدوسُك الثانية فتسحق هذا الرأس وتُقِلُّ ما يلازمَك من حظ عاثر معك إلى القبر... أين السيارات؟ أين؟».

أجساد كثيرة تغتصب الأرصفة النائمة تحت أقدام المتاجر. تمضغ اللبانَ وتحرق السجائر الفاخرة. «علبةٌ واحدة منها تطعمُك أياما بعدد أرجل هذه الذبابة التي خرجت من البيت معك؛ وتقف على أنفك بوداعةٍ تحسدُها عليها... لماذا تلازمك وكلُّ ما يحيط بك في مرارةِ الحنظل؟ لم يبق هناك أحدٌ يعرفك... الأصدقاء تنكروا لك... هل سيطاردُك السجن حتى القبر؟! إنها لا تتحرك... لو أكلتَها فلن تسد جوعَك الكافر...

قديما تَحدَّث الأستاذ عن ضرر الذباب... ولكنك قرأت ذات مرة أنه يتهافت على مناقير الغربان الصغيرة يطعمُها حين يتخلّى عنها الأبوَان خوفًا من لونها الأبيض... لم يعرف الأستاذ أن هذه الحشرات الصغيرة قد تكون أرحم حتى من الأبوين وأكثرُ نفعا... هل كان من الضروري أن تُولد؟».

أعلامٌ كثيرة ترفرفُ على الساحات وفوقَ المتاجر. «هل لهذه الأجساد المحتشدةُ علاقةٌ ما بهذه الاعلام؟. ربّما! ماذا يعنيني من هذا كله؟... ما بداخل المتاجر فقط يغازلُني بلغاتٍ شتّى تنقلُها المعدةُ الخاوية بترجمة فورية».

يحمل أحشاءَ المتاجر، يهدهدها في عينيه. «لو أمتلكُ المالَ اللازم إذن لأفرغتُ كلَّ ما أرى في جوفي... ربما أموتُ من التخمة... هذا أفضل من أن أقضي جوعا... ليت لتلك الأشياء أجنحة مثل هذه الذبابة، تحطُّ على أنفي وتنساب إلى فمي وجوفي...

من أين سيأتيك المالُ وأيٌّ من أصحاب المعامل والشركات لا يوظّف خرّيجُ سجن استضافَه خمسة اعوام؟... كلّهم يطالبونك بشهادة سلوكٍ حسن... أحطّ الأشغال في هذه المدينة اللعينة تتطلّب حسن سلوك.

من أين تأتي بالنقاء والسجن عنقاءُ تموت فيك وتحيا من رماد؟ ما من أحد يصدق أنك سُجِنت بتهمة لم تعرفها إلا بعد أن أفرج عنك... لقد وقفتَ حيثُ كان عليك أن تمشي. خمسة

أعوام كانت كفيلةً أن تنسى لماذا وقَفت... ولكنك تذكر من أين أخذوك... كنتَ يومَها تشعلُ سيجارةً رخيصة... قَبضَ على ذراعك شرطيٌّ وأمرَك أن تخرس...

لو لم تتعود أن تحدّث نفسك في الزنزانة لنسيتَ الكلام. حين خرجَت لم يفهمك أحد... كان واضحَا أنك تتكلم لغة أخرى.

لم تجد بُدًّا من أن تمدَّ يدَك وتتشحذ. أهالوا عليك سيلًا من النصائح والحِكم الدارسة... شابٌ طويل عريض وتشحذ. هل كان من الضروري أن تولد فتحملُ على جبينك وصمةً اسمها السجن والحظ العاثر. لما أدخلوك السجن؟

أقسمتَ أنك برىء. سبوك وضربوك. لمَّا نعتوك أول مرة بكلبٍ غضبت، ثم تعلَّمت كيف تبتسم تحتَ زخّاتِ السباب والضرب. لو كنت كلبًا مُشرَّدا لأمطرتَ السماء عظاما؛ ولَمَا طالبوك بشهادة سلوك حسن».

كلُّ شيء من حوله يغريه بالتوقف وإمعان النظر. «الوقوفُ رمَاك ذات مرة في أتون تجربة قاسية ستحمل آثارها إلى القبر. لمَّا ضربوك ونعتوك بابن الزانية احمرَّ وجهك واصفرّ... أمي العفيفةُ تُلاك بألسنةِ هؤلاء السفَلة، ولمَّا وضعوك وجها لوجه مع نجوم تطلع في عزِّ الظهيرة؛ تمنَّيتَ لو أنك تعرفُ أباك الحقيقي عساه يخلِّصُك من العذاب.

علَّموك كيف تخبِّيء أشياء كثيرة في داخلك تودُّ الظهور. بتَّ قادرا على التخفي والإخفاء... لكن، لماذا يلحّ عليك الجوعُ هذا الإلحاح المدمر؟! يدفعُ عينيك بعيدا لتتبرآنِ منك. بودهما أن تغادرا وجهَك لتناما هناك في المتاجر المُتخمة بما لذَّ وطاب».

ينتبهُ إلى يدٍ تهوى على كتفه بغلظة وخشونة. شرطيٌّ يصب عليه من عينيه زيتًا حارقا.

- علام تبحث؟

يبصقُ اللعابَ إلى داخله.

- أنا؟

وتبتسمُ أيضًا!

- أنا؟

- أنتَ... رأيتك تبتسم.

- ولماذا أبتسم؟

- أنا أسألك.

- أنا جائع.

- لا تراوغ. على وجهك سخريةٌ من شيء ما!

- سخرية؟

- واستهتار.

- واستهتار؟!

- رأيتك تبتسم وتمضي غيرَ مبال.

- ولماذا أقف؟

تهوي على صدغِه كفٌ بعشرين إصبع. تطيرُ الذبابةُ عن أنفه. تحوم من حوله، يملأ طنينُها أذنيه.

- وتقولها بوقاحة؟

- أنا؟

يحرّك الشرطيَّ ذراعيه في كلِّ اتجاه. يطفو الزبدُ من شدقيه.

- وهذه الجموع الواقفة، هل أنت أفضل منها؟

- بل أنا كلب.

- لم نأتِ إلى النتائج بعد.

- ها أنذا أقر وأعترف بأنني كلب.

- لا تظلم الكلاب.

يرى الذبابة وهي مُدبرةً عنه تحملُها أجنحة شفافة صافية.

- إذن فأنا ذبابة.

قلتُ لم نأت إلى النتائج بعد.

- أقسم أنني لم أبتسم، وإذا رأيتني أبتسم فلم أقصد أن أبتسم.

- لعلك كنت تريد أن تبكي؟

صاح بفرح:

- فعلا، كنتُ على وشك البكاء.

-وما الذي يبكيك؟

- الجوع.

يربتُ على وجهه بغلظة.

-هذا اتهام للسلطة التي تطعمُ الجميع.

- آآه... ما قصدتُه الجوع الجنسي.

- لهذا كنت تتلفتُ كالذئاب بحثًا عن النساء؟!

- أي نعم كنتُ أبحث عن النساء.

تهوي على صدعه لطمةٌ أخرى تبعثُ من عينيه الشرر.

ـ والنساءُ كما ترى يقفن احترامًا كي يكحلنَ عيونَهن بطلّةِ الزعيم أثناء مروره من هنا.

يتراجع مذعورا.

ـ آه... لم أقل شيئا... أنا أخرس.

تشدُّ على ذراعه يدٌ من فولاذ.

ـ حسنا... ستحلُّ عقدةَ لسانك في السجن.

«السجن ثانية» يحاول أن يتملَّص. عينا الشرطي تسدان عليه السبل. ينتفخ الشارع وينفجرُ فقاعةَ صابون. «ستسجن كرّة أخرى بلا ذنب يُذكر... حرام عليك إن أنتَ وقفت أو مشيت. ماذا عليك أن تفعل؟ الغربان الصغيرةُ تفتح أفواهها ليتهافت عليها الذباب... لو أغلَقَتهَا لن تُكتب لها الحياة.. ماذا عليك أن تفعل؟».

ينتشلُ بقوّةٍ لم يكن يعرفُ أنه يمتلكها ذراعَه من يد الشرطي. يهوى بقبضتِه على رأسِه فيسقط بلا حراك. يرى الذبابةَ مُقبلةً نحوه. تحط على أنفه. يطردها عنه ويقتحم أحد المتاجر.

بعضُ ما قالَه بعضُهم

تناقلَت الصحفُ خبرًا مفادُه أن رجلًا من ذوي الثراء الفاحش لما أحسَّ بقربِ المنيّة، رغِبَ أن يوزِّعَ مالَه على الفقراء، واشترطَ أن يتقدَّم كلُّ مَن أصابَه فقرٌ مزمن بشرح موجزٍ لآخر حادث أصابَه بالعجز. وقيلَ إن الثري فكَّرَ بهذا نكايةً بوريثه الوحيد الذي شكَّ بأنه دسَّ له السمَّ مرة، فلمَّا نجا تيقَّن بأنَّه يتمنى موتَه العاجل.

انهالت الرسائلُ على الثري بالآلاف، ولكنَّ المنية لم تمهله، فلم يقرأ سوى أربع منها، أشار إلى سطورٍ منها بالحبر الأحمر، وكتبَ في هوامشها بخط لم يقرأه أحد كلماتٍ لم ينفّذ ما فيها أو يعبأ بها أحد.

الرسالةُ الأولى

أشتغلُ حمّالا... قبل أن أغادرَ البيت بالأمس تعلّق بي ابني الصغير راجيًا: "أحضر لي معك يا أبي تفاحة"... لم أكن بحاجة إلى من يُذكّرني بأن التفاح وغيره كمالياتٌ لم تدخل بيتنا منذ أمد بعيد. فرحتُ لفطنةِ ابنى وتوقعت له مستقبلا مُشرقا؛ فهو لم ينسَ الحبة الحمراء التي وجدتها في قعر السلة قبل أكثر من شهرين... انحنيت عليه، قبّلته بحبٍ ووعدته أن سأحقق رغبته في المساء حين أعود.

ندمتُ في اللحظة التالية، خشيت أن يصفَني بالكذب لكثرة ما وعدته بأشياء مماثلة من قبل؛ فتضطرني السوقُ الراكدة هذه المرة أيضًا أن أخلفَ الوعد. فما أجنيه آخر النهار بالكاد يفي بثمن الخبز.

درتُ كالنملة أترصدُ الكثيرين ممن يحشون حقائبَ كبيرة وسلالا بمختلف الأطعمة، لم يُشِر أيٌّ منهم إليّ ولم يفطن أحدٌ ما لوجودي، فلدى كل منهم سيارة لامعة. كان الوقت يمرُّ حادا مؤلما وصوتُ ابني لا يزال يرنُّ في أذني. صممت أن لن أخذله هذه المرة حتى لو اضطررت أن أمدَّ يدي لأشحذ أو حتى أسرق... لا تعجب يا سيدي؛ فأنت لم تجرب الفقر طبعا.

الفقر يا سيدي يدفعُ بصاحبه إلى ارتكاب حماقاتٍ صغيرة وكبيرة؛ ولكني أعتصم دائما كغيري من الفقراء بما نسميه الشرف وعزة النفس... باختصار طردتُ هذه الفكرة الأخيرة وقلّمتُ أظفارَها حين لاحت لي عجوزٌ تنوءُ بحمل السنين وحقيبة متخمة بفاكهة وخضار. عرضتُ عليها أن أحملها.

هزّت رأسها بالنفي. وربما لاحظَت اللهفة والحسرة في عيني لذلك قالت: أتحملها بقرش؟ كان الوقت _كما قلت لك_ يمرُّ سكينا تذبحني في كل لحظة. لم أجد بُدًّا من القبول. كان الحِملُ ثقيلا والمسافة طويلة، ولكنني صبرت. ابني علّمني الصبر وأشياء كثيرة لا مجال لذكرها.

عدت لأشترى تفاحة. أتدري ماذا قال لي البائع يا سيدي بعد أن توغَّلَت ضحكتُه فيَّ كالمنشار؟ قال: هل تريدُ أن تتفرج بالقرش. انسحبتُ أحملُ خزيي وذلّي. ظللتُ أتسكع حتى انقضى جزءٌ كبير من الليل. لم أشأ أن أعود مبكرا فتذبحُ يدي الفارغة لهفة ابني... قلتُ لا بد أنه الآن في سابع نومه. ولكن المفاجأة المؤلمة أني وجدته ينتظرني عند الباب يغالبُ النوم بشراسة وعناد. لك يا سيدي أن تتصور كم ضحك ابني حين رآني ومن ثم كم بكى وبكي وكم بكيت.

الرسالةُ الثانية

المالُ يستولدُ المال والفقر يورثُ الفقر. هذه مقولةٌ سمعتها من أبي الذي نقلَها عن أبيه... ونحن الثلاثة لم نستطع أن نغيّرَ منها حرفا. ولمَّا كنتَ تريدُ آخرَ حادثة وقعت فلن أخبرك لماذا تركتُ أرضنا في القرية _هي على أي حال فدانٌ واحد ونحن خمسة أخوة_ قبل يومين وغادرتُ إلى المدينة التي أدهشَتني وأصابتني بالعجز، لأكتشفت أن ليس الأعمى فقط هو مَن فقد عينيه.

لم يبقَ من الدينار الذي جاء معي سوى عشرة قروش؛ فعزَّ علي أن أعود إلى القرية خائبا. قبلتُ أن أشتغل في مَحجر بعشرين قرشا من قبل طلوع الشمس إلى ما بعد المغيب... ليس هنا بيتُ القصيد فأنا ما جئت إلا لأعمل؛ ولكنه العمل

المرهق والشمس الحارقة والهواء الذي يلعب مع الرمل الأبيض الناعم لعبة عجيبة...

يظلُّ يدور يدخل مرمى عيني فيسجّل فيهما قبل أن ينتصف النهار أكثر من ألف هدف. لن أطيل عليك... برزَت لي النجوم في عز الظهر. لم أقوَ على الاستمرار. احتدّ صاحبُ العمل بادىء الأمر ثم ارتاحت أساريرُه وهو يناولني خمسة قروش.

أشرتُ إلى الشمس فلم يصدق أن قد مضى على انتصاف النهار أكثر ساعتين. قال إنه لا يرى الشمسَ سوى مرتين في حال شروقها وغروبها. دسستُ النقود في جيبي أضيفُها إلى العشرة فاكتشفتُ أن جيبي مثقوبة.

عدتُ أفتش بين الحجارة والرمل. غابت الشمس وهبط الظلامُ ولم أعثر لها على أثر. بزغَ الفجرُ ولم أعثر لها على أثر. ركبَني همٌ لا يوصف. اقتنعت بضرورة العودة إلى القرية كي أرقبَ الأرضَ العطشى والغيوم الكاذبة. ولكن القروش الخمسة لا تكفي أجرة الطريق هذا إن تغافلتُ عن صراخ معدتي الخاوية. لذا فكّرتُ أن أسرقَ من أحد الثياب المعلّقةِ لعمّال نائمين ما يكفيني للعودة وشراء ما أسدُّ به ألمَ معدتي. عندما دسستُ يدي في أنظفِ بنطالٍ رأيته لدغني شيءٌ ما لدغةً توقّفَ لها قلبي، لم تؤلمني كفي ولا تورّمَت؛ لأن اللدغةَ يا سيدي جاءت من داخلي لا من جيبِ البنطال.

الرسالةُ الثالثة

حكايتي الأخيرة هي نفسُ حكايتي الأولى. وأمي مَن ستحكي قصتي لأنها حدَثت مذ كنت طفلا. صدقتُها بالطبع، فآثارُها ما تزال باقية. وإذا قُيِّض لك يا سيدي أن تراني فستتأكد بنفسك من أنني لا أستطيع تحريك ذراعي اليمنى؛ ومن أن رجلي اليسرى أقصر من أختها بأكثر شبر.

حدث هذا قبل أن أعي الدنيا كما قلتُ لك _عفوًا كما قالت أمي_ ففي أثناء حملها بي كانت تعاني من ضعف وهزال واصفرار شديد. قالت لها العجائز من العارفات: إن حالتها ناجمة عن سوء تغذية رهيب. طوَت بطنها تحت أضلاعها وباتت تنتظر الفرج. حين جاءها المخاض عانت طويلا مع أنني في حجم فرخ القطّا كما وصفتني القابلة.

وظلّت تعاني من آلام مبرحه وهي ترى السنين تركض دون أن أحبو أو أمشي. أشار عليها الجيران أن تأخذني إلى طبيب مختص؛ ولكن أحدا منهم لم يفهم أو لم يرد أن يفهم لماذا ظلّت تقول «يحلّها الحلال» وكما ترى يا سيدي _عفوا كما سترى_ حملتُ عاهتين مستديمتين بسبب الفقر.

تصوّر يا سيدي كم تعاني أمي الصابرة. بالمناسبة هي ما زالت مثلي على وجه الأرض تتنفس وما زال وجهها مِن حينها شديد الاصفرار.

الرسالةُالرابعة

صبرتُ كثيرا على الفقر على أمل أن يصلح الحال. لم أكن أدري أنه محزنٌ أيضا إلا حين فارقتني قطتي. قد تستغرب وتقول: وما دخل القطةُ في الفقر؟. وقد تقول _وهذا حق_ إن تربيةَ القطط وكذلك الكلاب من شأن ذوي اليسار. ولأن قولك هذا صحيح مئة بالمئة تشجّعت بتقديم حكايتي الأخيرة هذه؛ لعل وعسى يطالُني شيء من أياديك البيضاء.

لم تزر بيتي القطط كما لم أفكر باقتنائها قبل أن أرى قطةً صغيرة بين أيدي صبية يرجمونها بالحجارة... أشفقت عليها لبؤسها وشقائها ربما لأن حالنا واحدة، وربما أيضا لأني توهّمت أن سألقى الخير جزاءَ تخليصها من مصيرها الأسود. أخذت أقاسمُها ما أحصل عليه من خبز. اعتقدت أنها راضية، ولكنها أخذت مؤخَّرا تتغيّب عن البيت فتراتٍ طويلة وحين تعود ترفضُ الخبز. تشمّه ثم تشيحُ بوجهها تقززا وتندفع خارجة كأنما يركبها عفريت.

لم تعد من ثلاثةِ أيام على غير عادتها. بالأمس تحديدًا قلقلتُ عليها فبحثت عنها طويلا إلى أن رأيتها في بيتٍ يتصاعد منه على الدوام بخار ساخن ورائحة شواء... انحنيت عليها. كشّرت عن أنيابها وفي عينيها نظرة تهديد ووعيد كأنها لم تلتقِ بي يومًا ولا كانت ربيبةَ حجرتي.

تنكّرت لي يا سيدي؛ بل الفقر ما جعلها تتنكر، بينما كانت في عينيها رسالةٌ صريحةٌ أن لن تعود يومًا ما دمتُ غير قادر على أن أقدم لها سوى الخبز المجرد. وبما أنك يا سيدي أمرتَ بالإيجاز فلن أحدّثك برحلةِ الفقر التي بدأت من جذور العائلة، والسلام....

استدعى الوارثُ الفقراء الأربعة. جاءوا على عجل. أبلغَهم أسَفه الشديد لاضطراره أن يحنثَ بالوعد. وأطلعَهم على فيض من برقيات يستنكرُ فيها أصحابُها هذه السابقة الخطيرة بإثارة مشاعر الفقر. وقرأَ عليهم بعض ما جاء على لسان الأثرياء فلم يَعلَق في أذهانهم حين تبادلوا نظراتهم الحارقة إلا المقولة الأخيرة: «إن الفقير هو من توهمُه نفسُهُ بالفقر؛ وإن القناعة كنز لا يفنى، وإن الغنى غنى النفس».

ضحكَ الوارث طويلا فانسحبوا يعضّون أصابعهم على أنهم نشروا غسيلهم في الوقت الذي لم تكن هناك شمسٌ تجفِّفُه أو هواء.

هذهِ النهاياتُ الصعبة

قفزَ من السرير وبقايا كابوس مزعج تحوم في رأسه طائرا داهمته عاصفة... «أمّه كانت تمسكُ سكينا بتَرت له ساقًا وذراعا، وهمَّت أن تحزَّ رأسَه مرددة: يجب أن تموت».

تحسسَ عنقَه الملتبة. حنَّ إلى قطرة ماء يقتل بها الظمأ. دكّت مسامعَه صرخةٌ هائلة مزَّقت شغافَ قلبه؛ وطاردت في عينيه فلولَ النوم. ولدُه الوحيد يترنّح قلبُه رافعا رايةً بيضاء لأكثر من شهر.

نهنهةُ بكاء زوجه أشبه بالسوس ينخرُ عظامَه الباردة. رآها تصوّب إليه نظرةً حزينة، وسمعها تغمغم بصوت كسير:

- إنه يموت... ولدي يموت.

لطمتهُ يدٌ عصبية قاسية. تحرّكت يده في الفراغ الكابي ترسم عجزه وحيرته. «ماذا باستطاعته أن يفعل كي ينقذه؟ لقد جاءه بعدما اشتعلَ الرأس شيبا واحترق الصبر. لا يريده أن يموت. لو لم يرزق به أصلا لكان ذلك أهون».

أحس بقطرتين ساخنتين تلهبان وجنتيه. تركَهما تتجمعان أسفل ذقنه.

- ليحفظه الله.

ترنّح صوتُه ضعيفا متخاذلًا من حلقٍ جاف كأنما هو خارج من تابوت.

دقّت زوجه صدرَها بيد بينما يدها الأخرى تُرطّب وجه الصبي ورأسه بخرقة بالية.

- آه يا ولدي.

- يكفي... يكفي أرجوك.

سقطَ عليه العجز وإحساس بالضياع. يشعر أنه جذعٌ منفرد تصفعه ريح عاتية. يغمر وجهه براحتيه. «إنكَ تتنفسُ وولدُك بين يديك يموت. الفقرُ يجعل الأطفال أيتاما و آباؤهم أحياء يرزقون. أنت أيضا شعرتَ باليتم مرتين. كنتَ في بطن أمك حين مات أبوك ثم رضّعتك من لبن الفقر والدموع.

شاخت تلك الأمُّ قبل الأوان. أتعبها الدوران على بيوت ذوي اليسار، تطبخُ لهم و تغسل وتمسح البلاط. كانت تقول: كلُّ هذا من أجلك... كانت تعلّق عليك آمالا كبيرة. ماتت قبل أن ترى حلمًا واحدا يتحقق. منذ ولدت والدنيا تتآمر عليك. تطاردُك. تدفعُ عمرَك مقابل يوم واحد لا تصادفك الرزايا فيه والنكبات.

ظلَلت توهم نفسك أن الدنيا حلوَها أكثرُ من مرّها. ثبتَ لك بالوجه القاطع أنها تستدرجك وتنصبُ لك الكمائن فتسقط في وهدة اليأس بعدما لوَّحت لك بالرجاء.

تجد نفسك مدفوعًا بقوة غربية كزورق تمزّقَ منه الشراعُ في عرض محيط هائج مائج. ستلطم أمّك خديها لو أنها عادت إلى الحياة من جديد. إنك تتنفس وولدك بين يديك يموت. فراغُ جيبك الدائم يجعل منه سفينة بلا ماء تمخرُ فيه. لا قرش هناك يؤنس جيبك من وحشة الفراغ وهذا الضياع. إنك تتنفسُ وولدك بين يديك يموت».

في اللحظة التي قال له الطبيب أن زوجته حامل، طارت أحلامُه وحلّقت بجناحي نسر فتي. سخِرَ من أولئك الذين عقدوا مع الغنى معاهدة عدم تجاوز واعتداء. «يسمعُهم يتذمرون من أعباء الحياة بعد الإنجاب. لو جربوا العقمَ مثله خمس سنين ما تذمّروا ولعرفوا معاناةِ رجل لم ينجب ولدًا يحقق أحلامه ورجولته. تأكّد له الآن أكثر أنهم كانوا على حق وأنه يلهث دائما خلف سراب. ليته لم يتزوج».

في بداية الشباب، سحرته فتاةٌ بجمال كان يراه نادرا. طاردَها شهورا. ولما قبِلت به زوجا رآها دميمة، متكلفة، جاهلة، بليدة. أدرك أنه ضيّع مستقبله. انهال عليه الشعور بالغبن تماما كذاك اليوم الذي قَبِل فيه أن يكون مُوظّفا صغيرا في مصرف صغير. ظل يدفعُ للناس النقود وآخر النهار يعود بيدين

فارغتين وقلب يملؤه الشجن. لو استغل مواهبَه لما رضي بأقل من مدير لمصرف كبير ذى سمعة مشرفة يعطي للزواج طعما آخر.

ولربما تزوج من فتاة ذات حسب تهدمُ صرحَ الفقر الذي أورثَه إياه أبوه. «مهزلة المهازل أن يفكر بالزواج فقير. البيت كالمصرف والشارع، كلها سجن محكوم عليك أن يقضي فيه معذبا طريدا... والمواهبُ لا تجدي في عالمٍ يحكمه الزيف والمصالح؛ يتحركُ بسحر أوراق ملونة بالأخضر والأزرق والأحمر».

زلزلَت كيانه صرخة هائلة. ولولَت زوجه.

- آه... بيضةُ الديك يا ولدي.

مارَ في صدره الغيظ. قفز إلى النافذة. يهز قضبانَها المتشابكة. رمى ببصره إلى السماء. أحزنَه كثيرا صفاؤها ووهج نجومها. لم يطق عبثَ النسيم وهو يخفق بأجنحة ناعمة كفراشة لعوب. استدار برأسه إلى ولده. ألفاه يتلوى تحت سياط الألم. فتَّش عن دموعٍ يذرفُها عليه. ألفَى عجزَه القاتل يحصدُ الحزن. «هل كان من الضروري أن تُنجب؟ ما الذي أوقعَ في روعك أن سيسدَ الإنجابُ فراغًا يتمطى في صدرك بعرض السماء والأرض؛ وأنّك بحاجة إلى ولدٍ تزرع فيه أحلاما لن تتحقق. أمك أيضا كانت تزرعك بالآمال ثم ماتت دون أن يكتسي جلدك بالريش».

سدَّدَ نظرةً عاتبة إلى السماء. هبطَ بعينيه إلى المدينة الساهرة. أنوارُها بروجٌ تهدّل فيها سعادة الكثيرين. حدَّد بقلبه المتوثب أماكن العيادات الطبية التي أوصدها أمامَه الفقر.

قالت زوجه كأنما تقرأ أفكاره وخواطره.

ـ لماذا تقف الدنيا في طريقنا هكذا بالعرض؟

يلقيه كلامُها ولهجتها على أرض صلبة باردة. «ما عهدها بمثل هذا التذمر من قبل. دائما تطوي رغائبَها، تدسُّها تحتَ رأسها وتنام قريرة العين. لم تطحنها مثلَه رحى الدنيا الغرور».

لطمَت خديها وصاحت.

ـ هل مُسِخُ وجه الخير يا عالم؟!

نبرتُها الحزينة تزيحُ الصخرةَ التي وضعَها في وجه الدموع. تنهمرُ. تغمرُ روحَه وتغرقها. لم يجد في حلقه وترًا واحدا يترجمُ أحزانه. يسخر من كل المرئيات. «النقود التي تدفعها كلَّ يوم تكفي حاجةَ أصحابها وتزيد. يدخلون المصرفَ ويخرجون منـه بالآلاف... يصلصون بالمفاتيح ويركبون سيارات فارهة، وأنت ما تزالُ تركبُ ساقيك. المقاصةُ من أمامك تُعلّق شدقيها علـى أوراق من كلِّ حجم ولون. قمّة المهازل أن تظل ظامئا؛ والماء ينساب من بين يديك».

يتحسسُ عنقَه الملتهب. «كانت أمّك تشقى في خدمة البيوت العامرة، تأتي لك بالفضلات. هي أيضا طحنتها رحى الدنيا فلم تكن راضية. كانت تحدّثك مُحنقَة عمّا تصادفه من ثراء فاحش، وعن مال لا بد وأن يكون سرقةً وحراما؛ حتى تبكي روحُها قبل عينيها.

كان وجهها المنهك يدفعك إلى الإحساس المضني بالغبن والشعور أنك سلكتَ طريقا غير ذاك الذي كان عليك أن تسلك. حاولتَ أن تغيّر وجهك الموسوم بالفقر، سرقتَ بيضةً فضربَتك أمّك ضربًا مبرحا؛ وعندما سرقتَ دجاجة قرصَتك من أذنك وعنّفتك، لكنك استطعت أن تلحظ ما عانته من تردد وهي تأمرك أن تعيدها بلهجةٍ فاترة. ليتها علمتك تلك الأم عمّا يفعله الجاهلُ بفنِّ السباحة إذا ما سقط سهوًا في الماء!».

أغمض عينيه. يحاولُ عبثًا أن يغلقَ أذنيه في وجه صيحات ابنه وأنّات زوجه. تفورُ من صدره الزَفرات... يغدو رأسه كرةً مشحونة بهواء ساخن. تطفو قصبةٌ مفرغة على سطح جدول سريع. يفتح عينيه على صفحة السماء اللامعة والمدينة الساهرة. يلوي عنقَه ناحية ابنه. تنهالُ عليه تلالٌ من الهم والغم. «ماذا بيده كي ينقذه؟ هل يظل الجاهلُ بفن السباحة ساكنًا أم تراه يحرّك ساقيه ويديه كيفما اتفق؟! فإما أن يهلك أو ينجو! المَقاصةُ تضمّ جناحيها على أوراق من كل حجم ولون... ماذا يحدث لو فتح غدا شدقَها أو اخطأ في الحساب؟! ماذا تراه يحدث؟!».

- هيّا.

استدار بكامله وقد راح يمسحُ دموعَه بيده وفي عينيه نظرةٌ لم ترها من قبل فيهما.

- إلى أين؟

- كفّي عن البكاء... ولنذهب.

مسحت دموعها وراحت تلملمُ ابنها بين يديها كمن تخشى عليه أن تنبتَ له أجنحةٌ ويطيرَ من حضنها.

- إلى أين؟

- إلى أيِّ مزرعة دواجن؟

- دواجن؟

رفعت حاجبَها وامتلأت ملامُحها بالدهشة والحيرة.

- إن لم أجد دجاجةً هذه الليلة فستسدُ رمقَ حاجتنا بيضة.

انتهت...